

الأهم

نهاية التاريخ

مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني

دكتور عبد الوهاب المسيري

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية
الأهرام

نهاية التاريخ

مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني

دكتور عبد الوهاب المسير

**هذا البحث يعبر عن آراء مؤلفه ولا يحمل
بالضرورة وجهة نظر المركز .**

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية

المحتويات

صفحة

مقدمة .. وشكر واهداء ٢

تمهيد

الصهيونية بنية فكرية أسطورية ٧

الجنور التاريخية لبنية الصهيونية

١ - الهسكلاه (حركة الاستنارة اليهودية) ١٢

٢ - فشل الهسكلاه وهزيمة العقل اليهودي ٢٣

بنية الصهيونية

١ - لاعقلانية الصهيونية ٣٩

٢ - الأمة المقدسة ٤٢

٣ - وحدة الوجود اليهودية ٥١

٤ - حلول الله في التاريخ ٥٤

صفحة

٥	— ديالكتيك الصهيونية الزائف وثبات المطلقات .	٦٦
٦	— التجريبية الانتقائية	٧٥
٧	— الصهيونية والتراث اليهودي	٧٨
٨	— الغيبيات العلمانية	٨١
٩	— المصطلح العلماني الصوفي	٨٩
١٠	— أسطورة العودة للطبيعة الكونية	٩١
١١	— الاعتناق الذاتي عن طريق الاعتماد على الجويم .	١٠٠
١٢	— معاداة السامية والعناية الالهية	١٠٣
١٣	— العنف	١١٠
١٤	— الصهيونية والنازية : رؤوس موضوعات .	١١٩
	الخاتمة	١٢٦

مقدمة

وشكر واهداء

لعله من العسير علينا ونحن في معركتنا اليومية مع العدو الصهيوني الشرس أن نحاول ايجاد مسافة وبعد ما بيننا وبينه لندرس أفكاره وآراءه بنفس الطريقة التي ندرس بها أى فكر وأى رأى ، ولنعرف منطلقه الفلسفى ولنصنفه ونضعه فى مكانه بين الفلسفات السياسية الأخرى . وحتى لو نجحنا فى ذلك ستدور فى ذهننا تساؤلات عدة : ما جدوى مثل هذه الدراسة ؟ وهل سيمكن للكلمات أن توقف الدم الفلسطينى النازف أو أن تعيد الشعب الطريد والأرض المسلوقة ؟ والإجابة ستكون ولا شك بالنفى ، فالكلمة لا تحل محل الحركة ، والتفلسف لا يمكنه أن يحل محل الفعل الفاضل ، والنظرية تظل دائما أكثر فقرا من الواقع الثرى .

ولكننا سنكون بلا شك مخطئين أشد الخطأ ان وضعنا النظرية فى مقابل الواقع ، والكلمة فى مقابل الحركة ، والتفلسف فى مقابل الفعل ، فالواحد لا يغنى عن الآخر . ولكن التعامل مع الواقع دون معرفة نظرية هو كالوثوب فى البحر بحماس دون معرفة سابقة بالسباحة ، وكذلك التنظير دون العمل هو كتعلم السباحة من الكتب دون الاقتراب من البحر . وعدونا نفسه يضرب لنا المثل

على ذلك ، فهو عدو عملي للغاية ، بل غير انساني وغير اخلاقي في عملياته ، الا ان علماءه ينفقون الساعات الطوال في دراسة صحفنا الادبية ومجلاتنا الفكرية وفي تحليل أعمال نجيب محفوظ والبياتي وفي ترجمة مسرحيات توفيق الحكيم وفي دراسة علاقة الطرق الصوفية بالتنظيمات الحرفية العمالية ! وهم لا يفعلون ذلك مدفوعين بحب مجرد أو خالص للمعرفة كنهاية في حد ذاتها (وهو حب نفقد روحنا وضماننا ان فقدها) بل يستفيدون بدراساتهم استفادة جمة ، فهم « يفرغونها » الى أسس علمية يمكنهم في ضوءها التعرف على حركة الحضارة العربية وفهم طبيعة السلوك العربي واتخاذ قرارات يومية مدروسة . وإذا كان هذا هو حال عدونا معنا ومع فكرنا ، فإن دراستنا النظرية للفكر والتاريخ الصهيوني له أهمية مضاعفة ، لأنه في المجتمعات التي يسود فيها « الوعي الزائف » تلعب الأفكار دورا فعالاً نظرا لانفصال الجماهير عن واقعها الاجتماعي والتاريخي ، والمجتمع الاسرائيلي — في تصوري — مجتمع يسيطر عليه الوعي الصهيوني الزائف .

وقد حاولت في هذا الكتاب أن أقدم دراسة لما سميته « ببنية الفكر الصهيوني » وجنورها التاريخية ، آملاً بذلك أن أبين طبيعة الصهيونية لا كتحرك سياسي وحسب ، بل وكحركة حضارية فاشية تحاول أن تفرض قيماً لا عقلانية متخلفة (رغم كل ما يقال عن التقدم التكنولوجي الاسرائيلي) . ولكن على الرغم من طابع هذه الدراسة النظري الا أنها تحاول أن تصل الى الأساس الفلسفي الذي يستند اليه الواقع الاسرائيلي ، مما قد يسهل على الباحث العربي فهم واستيعاب هذا الواقع . فعلى سبيل المثال حاولنا في هذا البحث ايضاح وحدة بنية الفكر الصهيوني وتجانسها رغم اختلاف المحتويات الايديولوجية من مدرسة صهيونية لأخرى ،

واكتشاف مثل هذه الحقيقة قد يلقي بعض الضوء على الحياة السياسية في إسرائيل بصراعاتها الحزبية وبتألفاتها الوزارية التي لا يمكن فهمها إذا ما طبقت المقاييس السياسية المألوفة والمتعارف عليها . كما ان دراستنا للاعتقالات الصهيونية ومثالياتها الفلسفية ستتمكننا من معرفة الأبعاد الحقيقية لشراسة العدو ولا إنسانيته وإصراره على رفع شعارات مثل « إسرائيل الكبرى » و « حدوده الطبيعية التي ورد ذكرها في التوراة » . بل اننا سنتبين من دراستنا ان مثل هذه الشعارات ليست مجرد أكاذيب يطلقها للاستهلاك المحلي في إسرائيل أو من قبيل الإرهاب لتحسين موقفه في المفاوضات ، بل هي شعارات يدين لها عدونا بالولاء الكامل . وما قد يبدو لنا ، وللجميع ، على أنه أكاذيب وأساطير هو بالنسبة له مثل البديهيات (ومن هنا أحسّاس اليهود والإسرائيليين الدائم بالاضطهاد حتى بعد ان ابتلعوا الوطن الفلسطيني كله) . وفي دراستنا للعنف حاولنا أن نبين ان العنف ليس ظاهرة عرضية في الصهيونية ، وانما هو نتيجة حتمية لموقف متكامل ، بل ان بعض الصهاينة ليعتبرون ارتكاب العنف عملا ايجابيا من الناحية السيكولوجية ، ولعل هذا ينبهنا أنه لا حدود لما قد يرتكبه عدونا من جرائم . والربط بين الأساس الفلسفي والموقف السياسي ليس أمرا مستحدثا أو غير مألوف ، بل ان العدو نفسه في بعض الأحيان يفسر مواقفه السياسية بل والعسكرية على أساس رؤيته الفلسفية . وعلى سبيل المثال نشر في ملحق النيويورك تايمز الأسبوعي الصادر بتاريخ ١٨ أبريل ١٩٧١ مقالا بقلم أمنون روبنشتين (عميد كلية الحقوق في جامعة تل أبيب) يرجع فيه الكاتب رفض الإسرائيليين المتكرر للسلام الى كراهية اليهود المتأصلة (وكراهية الإسرائيليين من بعدهم) للجوييم (الأغيار أو غير اليهود من الناس) ، وهذه قضية عالجنها في هذه الدراسة .

وبعد — هذه هي بعض الفوائد « العملية » والمباشرة لمثل هذه الدراسة ، ولكن الفوائد غير المباشرة عديدة هي الأخرى ، ولعل أهمها أننا بمحاولتنا دراسة الفكر الصهيوني دراسة موضوعية نكون قد ذكرنا الحقيقة ، وفكر الحقيقة في عالمنا هذا هو أكثر الأمور ثورية ، إذ أن الحقيقة ، والحقيقة وحدها ، هي التي ستحررنا من أوهامنا ومن ضلالات الآخرين .

وفي الختام أحب أن أتوجه بالشكر الى الصديق الأستاذ تحسين بشر الذي أهدى له هذا الكتاب لتشجيعه لي بل ولاصراره على أن أنهى كتابته ، فكثيرا ما سئمت الكلمات ولكنه كان دائما نعم الصديق والمعلم ، والى الدكتور اسامة الباز الذي تفضل بقراءة مخطوط الكتاب ومناقشة ما جاء فيه معي ، والى الملحقين الدبلوماسيين أعضاء الدورة الرابعة بالمعهد الدبلوماسي الذين استمعوا لمحاضراتي عن موضوع الفكر الصهيوني وكان لاستئذانهم الخلاقة أكبر الفضل على في تطوير أفكارى وتحسينها ، والى الدكتور حسن ظاظا عميد الدراسات العبرية في جمهورية مصر العربية والدكتور رشاد الشامي والدكتور إبراهيم البحراوي والأستاذ محمد سيد أحمد لتعليقاتهم على هذا الكتاب ، والى الأستاذين حاتم صادق وسميح صادق بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية لقبولهم وتحمسهم لنشر هذا البحث ولصبرهم على تأخرى المتكرر في التقدم به ، والى الأستاذ محمد عرفى الذي كتب المخطوط على الآلة الكاتبة وحل طلاسم خط يدي .

تمهيد

الصهيونية بنية فكرية أسطورية

من العسير علينا ان نعتبر الصهيونية ايديولوجية بالمعنى الشائع للكلمة ، فهي لا تقدم نظاما للقيم أو نظرة شاملة للعالم السياسي والاقتصادي وانما هي « موقف عام من الحياة » وافكار مجردة مرتبط بعضها ببعض بشكل منطقي هندسي متنسق مع نفسه .

وقد يمكن القول ان الايديولوجية ، اى ايديولوجية ، ان هي الا « موقف عام من الحياة » ، وهذا قول قد يكون مقبولا ، ولكنه يحتاج الى كثير من التعنيل . فنحن نعرف ان ثمة علاقة ما بين الايديولوجية والواقع المادى ، وهى علاقة مركبة للغاية لم تدرس بها فيه الكفاية حتى الآن ولا تزال بعض جوانبها سرا مغلقة بالنسبة لنا . ولكننا دون شك يمكننا ان نرى ثمة عناصر تدخل فى تركيب الايديولوجية هى اقرب للأساس الاقتصادى للمجتمع من غيرها ، فالنظريات السياسية والقوانين هى نتاج شبه مباشر لحركة المجتمع الاقتصادية ، فى حين ان علاقة الشعر والموسيقى باقتصاديات المجتمع ليست بنفس القوة ، واذا بدانا فى تقييم قصص الاطفال والاساطير الشعبية وجدنا انه ليس من السهل علينا التعرف على علاقتها بالواقع الاقتصادى الذى انتجها ، اما اذا درسنا اللغة وقوانين النحو والصرف فانتنا نكون قد دخلنا فى مجال بعيد كل

البعد عن الأسس الاقتصادية للمجتمع . اذا وضعنا هذا الجانب من الايديولوجية في الاعتبار لأمكن أن ننظر الى الصهيونية على انها مجموعة من الأفكار الاسطورية المجردة التي ضعفت صلتها بالواقع الاقتصادي الذي أنتجها ، سواء كان الجتو الأوروبي الصغير أم الجتو الاسرائيلي الكبير ، ولأمكن أن ننظر الى اتساقها مع نفسها على انه ليس انعكاسا للواقع الموضوعي ، وانما هو تعبير عن محاولة الهروب منه وأداة لتجاهله .

وضعف علاقة الرؤية الصهيونية بالواقع الاقتصادي حقيقة ترجع هي ذاتها الى اسباب اقتصادية تاريخية ، فأقليات اليهود المختلفة في أوروبا (وهي الأقليات التي أفرز وضعها الفكر الصهيوني) لم يكن لها علاقة محددة بوسائل الإنتاج ، ولذا لم يكن وعيها السياسي محددا واضحا : فعدم وجود مكان محدد لليهود في المجتمع ، وعدم انتمائهم لقوى اجتماعية واضحة ، وتخلفهم الحضاري (خاصة في شرق أوروبا) كل هذا جعلهم غير قادرين على التعامل مع الواقع المتقدم من حولهم ، مما أدى الى افراز فكر له طابع مجرد أسطوري ، ساعد الجماهير البورجوازية الصغيرة وقيادتها الصهيونية على أن تنظر لنفسها على أنها شعب مقدس مختار .
وقد بين الأستاذ قدرى حفى في كتابه **تجسيد الوهم** أن وضع اليهود الحضاري في الجتو ضخم من احساسهم بالاضطهاد والتفرد ، فإذا أرحت ترجمة هذا المصطلح السيكولوجي الى مقابلة الفلسفى لقلت أن وضعهم في الجتو جعلهم ينظرون الى انفسهم على أنهم خارج التاريخ يحيون حياة « مثالية » مجردة . وعن طريق هذه الأفكار المجردة أمكن للصهيونية تجنيد جماهير البورجوازية الصغيرة اليهودية في أوروبا الشرقية ، وعن طريقها لا تزال قبضة على الاسرائيليين تسيرهم وتوجههم .

هذه البنية المحددة المعالم للفكر الصهيوني مستمدة في واقع الامر من الأساطير اليهودية الدينية القومية مثل أسطورة الامة المختارة وشعب الكهنة وأرض الميعاد ، وهي أساطير ساعدت اليهود عبر تاريخهم على الاتسلاخ عن واقعهم التاريخي ، وعلى اضعاء طابع ضوفي مجرد على انفسهم . والصهيونية يدورون داخل اطار هذه الأساطير ، فالاستعمار الاستيطاني لاخذ بلاد الشرق الاوسط

العربية لا يستند في تصورهم الى مخطط استعماري ولا يصدر عن مصالح اقتصادية محددة ، وانما هو مجرد عودة الشعب الى أرض الميعاد . والمهاجرون اليهود ليسوا بمستعمرين استيطانيين ، وانما مجرد « معقيلين » أي « مجاهدون في العودة الى أرض اسرائيل » كما جاء في العهد القديم . والعنصرية الصهيونية ليست عنصرية على الاطلاق ، وانما هي تعبير عن ارادة الشعب المختار ذي الرسالة الخالدة . اما الفلسطينيون فينبون في هذا البنيان الفكري المجرد ، ويصبحون مجرد كنعانيين : سكان مؤقتين في هذه الأرض المقدسة لابد من لباثتهم حتى يتسنى تحقيق الوعد الالهى .

هذه البنية الاسطورية وضعت فيها « محتويات » فكرية وحضارية ودينية وسياسية كثيرة ، ولكنها كلها تأتي في المرتبة الثانية بعد المقولات الصهيونية الأساسية . فجميع المفكرين الصهاينة متفقون على أهمية الدولة اليهودية : دولة تضم كل أبناء الشعب المختار المشتتين في أركان العالم ، اما المحتوى الاجتماعي أو حتى الدينى — الأخلاقى لهذه الدولة فمسألة مؤجلة حتى وقتنا هذا . فلا الاشتراكيون يصرون على اشتراكيته (فحزب الماسيم « اليسارى » مثلا يؤيد التدخل الأمريكى في فيتنام ، ولا يعارض الاستثمارات الأجنبية (والخاصة في اسرائيل) ، ولا الليبراليون يصرون على علمانيته ، ولا الرأسماليون يصرون على رأسماليتهم (فحزب الماباى يدخل في تحالف مع الأحزاب الدينية مطلقا يدها في كثير من جوانب الحياة في اسرائيل العلمانية ، كما ان الأحزاب اليمينية لا ترفض التحالف مع الأحزاب اليسارية وتتقبل بعض السمات الاشتراكية أو « الجماعية » التى تتسم بها الحياة في اسرائيل) ، ولا الدينيون يصرون على تطبيق مثلهم « الروحية الدينية » (وان كانوا هم أكثر القطاعات اصرارا على أيديولوجيتهم داخل المجتمع الاسرائيلى) .

الصهيونية أنف فكر سياسى يأخذ شكل بنية فكرية متسقة لا تختلف في تركيبها كثيرا عن الأساطير اليهودية الدينية ، وهى بنية فكرية سياسية تستغل الدين اليهودى لتكتسب بعدا تاريخيا وإنسانيا ، كما أنها تستغل كثيرا من الأفكار السياسية العلمانية والثورية لأصفاء صبغة علمانية أو ثورية على نفسها .

وقد تنبه كثير من الصهاينة لهذه الحقيقة ، فالحاخام صموئيل حايم لاندائو Samuel Hayyim Landau (١٨٩٢ - ١٩٢٨) يرى أن البرنامج الصهيوني يدور حول فكرة واحدة « لما كل القيم الأخرى فما هي إلا أداة في يد هذا المطلق الأمة » (٣٠٨) (١) . ويوضح جاكوب كلاتزكين Jacob Klatzkin (١٨٨٢ - ١٩٤٨) ، الفيلسوف الصهيوني البولندي الأصل ، القضية بشكل ينم عن الفكاهة في مقاله « الحدود » ، فهو يبين أن اليهودية « تعتمد على الشكل وليس على المضمون » . هذا الشكل الأساسي هو « تخلص الشعب اليهودي للأرض » ، أما المضامين الروحية أو الفكرية المختلفة فقد تختلف بشكل جذري ، ولكن هذا لا يهم « لأن مضمون الحياة نفسه سيصبح قوميا عندما تصبح أشكالها قومية » (٢٠٤) . بمعنى أنه إذا كانت بنية الفكر تدور حول مطلق الأمة والكيان القومي فإن أي محتوى فكري آخر سيكتسب حتما بعدا قوميا .

ولكن يبدو أن كلاتزكين لم ينتبه الى أن هذه البنية القومية الصهيونية هي أساسا بنية أسطورية دينية ولذلك فهو كان يتصور أن الاتجاه نحو العلمانية في الحركة القومية اليهودية هو الذي سيسود في نهاية الأمر ، وأن شخصية النبي الدينية التقليدية وأخلاقياته (٢٠٥) هي شخصية ولا شك في طريقها الى الزوال . والأمر الذي لم يتبينه كلاتزكين أو الصهاينة الليبراليون والاشتراكيون هو أن الفكر القومي اليهودي رغم علمانية محتواه الظاهرة فإن بنيته تجسد محتوى غيبيا واضحا (خاصة وأن التراث اليهودي لا يفرق بين ما هو قومي وما هو مقدس) ، وأن علمانية الصهيونية

(١) لطفي العابدين وموسى عنز (ترجمة) ، اشراف الدكتور انيس صايغ ، تعريف الدكتور أسعد رزوق ، الفكرة الصهيونية : النصوص الأساسية (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ١٩٧٠) . لتقليل عدد الهوامش سنشير الى أرقام الصفحات في النص نفسه . أحب أن أشير هنا الى أنني اضطررت في بعض الأحيان الى تغيير الترجمة حتى تتفق مع الأصل ، وإلى تعديلها بشكل طفيف أحيانا أخرى حتى تتفق لغويا مع سياق الدراسة ، وإلى تأكيد بعض الكلمات . والأصل الذي ترجمت منه هذه النصوص هو كتاب آرثر هرتزبرج ، الفكرة الصهيونية: تحليل تاريخي ومفكرات (نيويورك : هاريز آندرو ١٩٥٩) . في مجال التعريف بالمفكرين الصهيونيين محل الدراسة استعنت بهرتزبرج وبترجم الدكتور رزوق .

لم تكن الا مضمونا فكريا لا يؤثر في البنية الاسطورية . وهذه حقيقة تبينها الصهاينة المتدينون والروحانيون وحدهم ، ولذلك فقد دخلوا في تحالفات مع الصهاينة العلمانيين مطمئنين الى ان الغلبة ستكون لهم في نهاية الامر . وقد بين مسار التاريخ اليهودي في العصر الحديث ان توقعاتهم كانت في محلها وانهم لم يخنهم التوقع .

وجوهر هذه البنية القومية الاسطورية هو الاحادية ، فنحن نجد في الفكر الصهيوني — تماما كما هو الحال في الاساطير اليهودية — ان الجزء يذوب في الكل ، والتفاصيل العديدة المحسوسة والنسبية تنوب في المطلق ، والتاريخ المتنوع المتعرج يصبح تعبيراً عن فكرة واحدة ، تماما مثلما كان يتحرك الشعب المختار في المطلقات الاحادية (ومن هنا كانت دائرية الفكر الصهيوني — التي ستوضحها فيما بعد — ومن هنا كان جدله الزائف ، وكل جدل زائف يأخذ شكل دائرة منغلقة على نفسها ، على عكس الجدل الحقيقي الناتج عن التفاعل مع واقع محسوس ، الذي يمكن القول انه يأخذ شكل حركة حلزونية متقدمة للأمام) .

ولكن لم ندرس مثل هذه الأفكار الاسطورية المجردة ؟ او ليس من الأفضل ان ندرس الواقع الاسرائيلي المعاصر ؟ ان دراسة الواقع الاسرائيلي مسألة هامة ولا غنى لنا عنها ، ولكننا يجب ان نضع في الاعتبار ان ما يحدد سلوك الأفراد ليس « وضعهم الاقتصادي » المجرد والمباشر ، وانما الأفكار والرؤى المحسوسة والاساطير التي يفرزها هذا الواقع ثم تسيطر هي عليه بعد حين . والدور الذي تلعبه الأفكار في تحديد سلوك الانسان هو ما يفسر ان أفراد نفس الطبقة قد يسلكون سلوكا ثوريا او ليبراليا او فاشيا ، بل ان الفاشية هي اكبر دليل في عصرنا الحديث على الدور الذي تلعبه الأفكار التي يفرزها الواقع في فصل الجماهير وجدائيا عن وضعها الاقتصادي وتعبئتها وتسييرها لتحقيق أهداف ليس لها سوى علاقة واهية بواقعها الموضوعي ، بل ان هذه الجماهير ضحية الوعي الزائف لتسير أحيانا من أجل مثل ورؤى معادية لمصلحتها هي نفسها .

ودولة اسرائيل تطفو على سيل جارف من المساعدات المالية التي تأتيها من يهود الدياسبورا (الشتات) ومن الدول الامبريالية ، وهي مساعدات تجعلها « متحررة » من أي واقع اقتصادي محدد ، ولذا

يفشل الاسرائيليون — كمجموعة بشرية — في الانسلاخ عن بنية الفكر الصهيوني وفي تحديد وعيهم الاقتصادي والتاريخي ، ويتمو بالتالي وعيهم الزائف ويضمر وعيهم الحقيقي بالواقع الموضوعي .

والامبريالية العالمية لا تنظر لاسرائيل باعتبارها استثمار تجاري عادي (وان كان لا مانع من ذلك ان سنحت الفرصة) ، وانما تراها على أنها استثمار سياسي بالدرجة الاولى ، ولذلك تضحي الامبريالية أحيانا بالعائد المادي المباشر في سبيل الهدف الاستراتيجي النهائي : خلق جماعة استيطانية في منطقة الشرق الاوسط وجودها رهين بوجود الاستعمار ، تقوم بدور العميل النشط المدافع عن مصالح الاستعمار . وانفصال المواطن الاسرائيلي النسبي عن أي واقع اقتصادي محدد يجعله محاربا نشطا مثل الجندي النازي الذي كان يتقدم الى غايته دون أي تساؤل أو تردد ، فالأسطورة المجردة تعزل الانسان عن الواقع بل وعن مصالحه وذاته . ان الاسرائيليين كشعب يلعبون نفس الدور الذي لعبته اقلية الايبو في نيجيريا وشعب القوقاز في روسيا القيصرية ، فهي اقليات كانت تتمتع بوضع ممتاز نسبيا نظير أدائها لبعض الخدمات التي تطلبها منها السلطة التي منحتها هذه الامتيازات سواء كان الاستعمار الانجليزي أم القيصر الروسي أم الامبريالية الأمريكية .

وقد ساعد العرب أنفسهم على استمرار هذا الوضع بفشلهم النسبي حتى الآن في الحاق أي نوع من الهزيمة باسرائيل ، فالمواطن الاسرائيلي مثل المواطن النازي ضحية الوعي الزائف ، وعلينا ان نتذكر ان النازيين لم يستيقظوا من أحلامهم الا بعد ان ارتطمت هذه الاحلام بالواقع الموضوعي . كما أن العرب بالغائهم حتى عهد قريب الوجود الفلسطيني أو بوضعه تحت الوصاية الجبرية خلقوا لاسرائيل الفراغ التاريخي الذي مكثها من التنفس والتحرك بحرية وطلاقة . فضلا عن أن ما يبيده العرب من مظاهر الرغص الكامل لكل قطاعات المجتمع الاسرائيلي بما في ذلك القطاعات المعادية للصهيونية من شأنه أن يطمس معالم التناقضات الاجتماعية داخل المجتمع الاسرائيلي ، ويزيد من هيمنة وسيطرة الوعي الزائف .

ان دراسة بنية الفكر الصهيوني ، لكل ما تقدم من أسباب ، مسألة بالغة الحيوية لأنها ستساعدنا على تفهم عقل عدونا وعلى التنبؤ بسلوكه ، وعلى اختيار انجح الوسائل لمحابهته .

الجذور التاريخية لبنية الصهيونية

١ - الهسكله (حركة الاستنارة اليهودية)

على الرغم من أن الصهيونية بنية أسطورية مجردة إلا أنها — كما أشرنا من قبل — لم تنشأ في اللامكان ، وإنما نتجت عن تفاعل عوامل اقتصادية وتاريخية مختلفة أدت في نهاية الأمر إلى افشال مختلف الحركات العقلانية بين اليهود ، بما في ذلك حركة الاستنارة اليهودية أو الهسكله . ولفهم بنية الصهيونية ذاتها لابد وأن نحاول دراسة هذه العوامل والظروف .

يطلق اصطلاح الاستنارة على هذا التيار الفلسفى الذى ساد أوروبا فى أواخر القرن السابع عشر ، وأوائل القرن الثامن عشر ، والذى نادى بسيادة العقل فى كل مجالات النشاط الإنسانى . وقد نادت حركة الاستنارة بأن العقل وحده ، الذى لا يقبل إلا البديهيات الواضحة ، يجب أن يكون مرشد الإنسان وهاديه ، فكل المعرفة الإنسانية هى نتاج الإدراك الحسى ، وما الحقيقة سوى مفاهيم نجردها من جماع ادراكاتنا الحسية المختلفة بعد أن يقوم العقل بتقييمها وتمحيصها . وقد شكل تصور لوك للعقل الإنسانى ، على أنه صفحة بيضاء تسجل كل ما ينطبع عليها من أحاسيس ، الأساس الفلسفى لهذا الموقف العقلانى (وقد أثر لوك والفلسفة الليبرالية الانجليزية والتجريبون الروس على دعاة الاستنارة بين اليهود) . وآمن العقلانيون أو المستنرون بأن العالم تتحكم فيه قوانين وعلاقات يمكن لعقل الإنسان تفهمها والتحكم فيها ، ونادوا بأن الإنسان

ليس مخلوقا صوغيا عجيب الأطوار غير خاضع للتقنين والتقييم وإنما هو كائن يتأثر بالبيئة الاجتماعية والحضارية التي يعيش فيها وأنه عن طريق اصلاح هذه البيئة يمكن للانسان أن يحقق قسطا اكيدا من السعادة . وهم لايمانهم بأن عقل الانسان صفحة بيضاء ، آمنوا بالمساواة بين كل الأفراد والشعوب بغض النظر عن دينهم أو عنصرهم . ونادى المستقرون بأن يعيش الانسان حسب ما يمليه عليه عقله وبأن يدير ظهره للخرافات .

تأثر اليهود والفكر اليهودى تأثرا عميقا بحركة الاستنارة الاوروبية، ولقد كان لليهود بالفعل حركتهم العقلانية الاستنارية وهى تسمى « بالهسكلاه » . وكلمة « هسكلاه » كلمة عبرية تعنى « فهم » ، ولكنها فى العصر الحديث تشير الى الحركة الفكرية اليهودية التى بدأت فى القرن التاسع عشر والتى نادت بأن يترك اليهود عزلتهم ليخلقوا قيما أخلاقية جديدة تحل محل قيمهم العتيقة البالية ، كما دعت الى تحكيم العقل فى كل ما يمت بصلة للتراث اليهودى ، فالإيمان بالعقل يعنى رفض الحجج الغيبية ، ويعنى أيضا أن يصبح الاقتناع المنطقى عند كل فرد هو الحكم الوحيد على معتقداته وقيمه . ونادى دعاة الهسكلاه باذخال التعليم العلمانى فى المدارس اليهودية، بل طالبوا أن يرسل اليهود ولادهم لمدارس الجويم حتى يتقنوا كل الفنون العلمانية مثل الهندسة والزراعة والبناء . وقد زعزع هذا من كيان السلطة الدينية التى كانت تحكم فى اليهود مبقية أياهم رازحين تحت نير الظلمات والغيبيات .

وكما بينا من قبل نادت حركة الاستنارة بأن الطبيعة الانسانية فى جوهرها عقلانية ، وأن بنى البشر ، بغض النظر عن ملهم ونحلهم ، يمتلكون نفس المقدرات العقلية ، ولذا لم يكن من الغريب أن ينادى المسكيليم (دعاة الهسكلاه) بأنه من الممكن ، بل من الواجب ، أن ينفذ اليهودى عن نفسه قشرته القومية المتخلفة التى تحجب وتطمس جوهره الانسانى ، وأن يندمج مع بقية شعوب الأرض حتى يكون ولاؤه الأول والاخير لبلاده التى ينتمى اليها ، وليس الى قوميته الدينية التى لا تستند الى أى سند عقلى موضوعى ، ففى تصور المسكيليم كان على اليهودى أن يصبح يهوديا فى منزله ، انسانا عاديا فى العالم الخارجى . أى أن المسكيليم فصلوا اتدين

اليهودى عما يسمى بالقومية اليهودية ، وانكروا أن مثل هذه القومية
أى وجود .

وذهب المسكليم الى أبعد الحدود فى رفضهم للشخصية اليهودية
التقليدية المتخلقة : فى خضوعها وفى طفيليتها وفى غرقها فى طقوس
دينية لا علاقة لها بالمكان أو الزمان اللذين يعيش فيهما اليهود ،
بل أنه يمكن القول أن المسكليم انتقوا الى حد ما مع المعادين
للسامية فى موقفهم من اليهود التقليديين .

ويبدو أن الهسكلاه قد هزت المجتمع اليهودى فى الجتو (أحياء
اليهود فى أوروبا) من جذوره ، غنمط الحياة اليهودى فى العصور
الوسطى ، وهو النمط الوحيد الذى ألفه يهود الجتو ، كان ضربا
من الحياة المتكاملة التى لا ينقصها من عناصر الحياة الاجتماعية
شئ ، وحيث أنهم وجدوا فى هذه الحياة الطمأنينة الداخلية الكاملة ،
فقد تركز اهتمامهم على البقاء فى حالة عزلة كما يقول ماكس نورداو
Max Nordau (١٨٤٩ — ١٩٢٣) الزعيم الصهيونى الألمانى
(١٣٣) .

قضت الاستنارة على هذا النمط من الحياة ، وأصبح لليهود
« بيوت جديدة » فلم يعودوا بحاجة الى عزلتهم . « أصبح لديهم
الآن معارف جدد ، فهم غير مجبرين على العيش مع اخوانهم فى
الدين » (١٣٤) . قبل ظهور الاستنارة والهسكلاه كان اليهودى
يعرف مكانه ووظيفته : أن يعيش فى الجتو على هامش التاريخ
أو حتى خارجه ، شاهدا على الأمم وضحية منها . وقد تقبلت
معظم المجتمعات الأوروبية فى العصور الوسطى اليهودى على أنه
شخصية هامشية ، ولكن بعد الاستنارة والهسكلاه برؤيتهما
« العقلانية العلمانية بات من المستحيل تقبل هذا الوضع ، خاصة
وإن الدول القومية بدأت تطلب من رعاياها التخلّى عن ولائهم
الطائفية أو العنصرية (التى تسود فى المجتمعات الاقطاعية)
والانصهار فى البوتقة القومية الجديدة ، أو كما قل أحد دعاة الثورة
الفرنسية فى ديسمبر ١٧٨٩ : « اننا نرفض أن نمنح اليهود كرامة
أى شئ ، أما اليهود كأفراد فاننا نمنحهم كل شئ » ، ولذا كان على
اليهود إعادة تقييم رؤيتهم ، كما كان على اليهودى أن يعيد صياغة
نفسه ليواكب الروح العصرية التى اخترقت جدران الجتو .

ولعل هذا هو السبب الذي دعا المسكليم الى توجيه سهام
نقدهم الى الجوهر الأسطوري الذي يدور حوله التراث اليهودي ،
فقبل ظهور الهسكلاه كان اليهودي على يقين كامل انه رغم انحطاطه
الملاي ورغم كل الظروف التي تحيط به فهو أكثر سموا من الجويم
في الأمور الروحية لأن الله اصطفاه دون العالمين . بل ان الفكر
اليهودي الديني ليذهب أبعد من ذلك ويؤكد ان اضطهاد اليهود عبر
التاريخ هو احدى علامات هذا الاصطفاء . وقد أسهمت أسطورة
« الشعب المختار » في تعميق عزلة اليهود عن الأمم التي يعيشون
بين ظهرانيها ، كما أسهمت في تأكيد الفوارق بينهم وبين « الأجناس »
الأخرى ، فالأسطورة تجرد اليهودي من انسانيته ومن كيانه الزمني
المحسوس لأنها تعلية على ما هو انساني وتاريخي ، ولذا حاول
المسكليم أن يبينوا زيف هذه الأسطورة ليستعيدوا لليهودي انسانيته
المهرقة .

وحاول المسكليم كذلك تناسي أسطورة العودة ، أو على الأقل
تحويلها الى مفهوم روعي أخلاقي . فأسطورة العودة ، مثل أسطورة
الشعب المختار ، أسطورة لا عقلانية تعزل اليهودي عن الآخرين
بأن تربطه بمكان آخر في آسيا ، ولهذا حاول دعاة الهسكلاه أن يحولوا
فكرة جبل صهيون الى مفهوم روعي أو الى اسم للمدينة الفاضلة
التي لا وجود لها الا كفكرة في قلب الانسان المثالي ، واصبح الخلاص
هو انتشار العقل والعدالة بين الشعوب غير اليهودية ، وليس
بالضرورة مرهون بالعودة الى أرض الميعاد . وهذا الخلاص بمعناه
الجديد سينتج عنه حتما انتهاء آلام « المنفى » (١) .

ويعد موسى مندلسون (٢) Moses Mendelssohn (١٧٢٩ —
١٧٨٦) الفيلسوف اليهودي الألماني ، فيلسوف الهسكلاه

(١) من مصادر هذا الفصل كتاب بن هالبرن ، فكرة الدولة اليهودية (كالمبريدج ،
ماساتشوستس : هاروارد يونفرستى برس ١٩٦١) ٢ — ٩٠ .
(٢) ايزودور أبشتاين ، اليهودية : تقديم تاريخي (بالتيمور : بنجوين بوكس
١٩٥٩) ٢٨٧ — ٢٨٨ وكذلك سلومون جرايزيل ، تاريخ اليهود من المنفى البابلي
الى الوقت الحاضر ٥٧٢٨ هـ — ١٩٦٨ (نيويورك : نيز أمريكا لايراري ١٩٦٨)
٤٦٨ — ٤٧١ .

بالدرجة الاولى الذى حاول أن يحطم « الجتو العقلى الداخلى » الذى أنشأه اليهود حول أنفسهم لموازنة الجتو الخارجى الذى كانوا يعيشون فيه . وقد بذل أقصى جهده لتبيان علاقة الدين بالعقل ، ورفض أن يعترف بأى جانب من اليهودية يتناقض مع العقل ، بل أنه ذهب الى حد الايمان بأن اليهودية ليست « ديناً » مرسلًا من عند الله بل هى مجموعة من القوانين الأخلاقية المنزلة ، وأنه عندما تحدث الله مع موسى فى سيناء لم يذكر له أى عقائد ، بل فكر طريقة للسلوك يتبعها الأفراد فى حياتهم الشخصية . وقد انتقد مندلسون سيطرة الحاخامات على الذبابة اليهودية واليهود وبين فى كتابه **أورشليم أو انعلاق اليهود المبنى** (١٨٧٣) أن هناك أسبعا ثلاثة لليهودية : أولا وجود الله ، ثانيا الايمان بالمعناية الالهية ، ثالثا خلود الروح . وقد تقبل مندلسون هذه القيم لأنها حقائق بديهية مثل الحقائق الرياضية ، كما أنها تشكل الأساس الفلسفى لكل الأديان قاطبة . وحاول مندلسون أن يعيد تعليم اخوانه فى الدين حتى يمكنهم الاندماج مع بقية الشعوب ، فقام بترجمة « أسفار موسى الخمسة » الى الألمانية ليقضى على عزلة اليهود الموضوعية والنفسية وكتب تعليقا مستنيرا على الكتاب المقدس ، وأصدر مجلة لنشر كل ثمار الثقافة العالمية بالعبرية ، وأخيرا أنشأ مدرسة فى برلين للأطفال اليهود لتعليمهم الألمانية وبعض الأعمال اليدوية الى جانب العلوم اليهودية التقليدية . وحاول مندلسون أن يضمن استمرار حركة الهسكله ، فطالب بمنح كل فرد حرية العقيدة ليقرر كل ما يشاء حسب ما يمليه عليه ضميره وتصوره الأخلاقى ، أى أنه كان يحاول أن يجعل من اليهودى فردا له حريته ووعيه وليس مجرد وحدة فى مجموعة قومية دينية تسلبه حريته وانسانيته .

وقد تركت فلسفة مندلسون اثرا عميقا على الفكر اليهودى ، بل ويمكن اعتبار مذهب اليهودية الإصلاحية ثمرة مباشرة للهسكله عامة . وفكر مندلسون على وجه الخصوص ، فقد حاول مؤسسو هذا المذهب أن يصلوا الى صيغة معاصرة لليهودية تلائم العصر وتتخلص من اسار المطلقات التاريخية التى كانت تدور فى فلكها . وتتضح هذه النظرة التاريخية فى موقف الفكر الإصلاحى صمويل هولد هايم Samuel Holdheim (١٨٠٦ — ١٨٨٠) من التلمود اذ يقول : « يتكلم التلمود بايديولوجيا العصر الذى جمع فيه ،

فصلاحيته قلصرة على ذلك العصر . أما أنا فأتكلم من وجهة نظر
الايديولوجيا العليا لهذا العصر ، لذلك فأنا محق ولى الصلاحية
لعصرى « (١) . ويمكننا القول ان أحد التيارات الأساسية في الفكر
الإصلاحي هو وضع المعتقدات الدينية اليهودية في إطار تاريخي
ومحاولة التمييز بين ما هو مقدس أزلي وما هو دنيوي زائل . ففكرة
الوحي والنبوة التي تسيطر على الوجدان اليهودي عدلت ، ورأى
الإصلاحيون أن الوحي ليس خالصا صافيا بل يختلط بعناصر تاريخية
زمنية ، وبذا يصبح اليهود ملزمين بمحاولة فهم وتفسير هذا الوحي
من آونة لأخرى وأن ينفذوا منه ما هو ممكن في لحظتهم التاريخية .
وعلى هذا يصبح القائلون الإلهي له « السلطة والحق فقط طالما
كانت أوضاع الحياة التي جاء لمعالجتها مستقرة ، وعندما يتغير
الأوضاع يجب أن يتسخ القائلون حتى وإن كان الله صاحبه
ومشرعه » (٢) . بل أن هذا التيار التاريخي ليصل منتهاه في قرارات
مؤتمر بتسبرج الإصلاحي (١٨٨٥) الذي تقرر فيه « أن الكتاب
المقدس ليس من صنع الله ، بل هو وثيقة من صنع الإنسان » (٣) ،
أي أنه نجاج وعى الإنسان التاريخي وليس مطلقا خالصا بنوء الإنسان
بحمله . وكان هولدهايم يعتقد أيضا أن الدين أداة ابتدعها الإنسان
من أجل تطوير المجتمع البشرى ، وهو — كأي أداة أخرى — لابد وأن
يواكب التطور وأن يعدل من آونة لأخرى . وتقاليد اليهودية ولاهوتها
كانا ملائمين للماضي ، ولكنهما الآن قد فقدتا صلتها بالواقع ولا بد
من تطويرهما . أن عقل الإنسان هو الذي يجب أن يحكم وليست
الطقوس والتقاليد الدينية الساكنة (٤) .

وهذا التيار العقلاني التاريخي (٥) النسبي هو في الواقع تعبير عن
رغبة اليهودي في تقبل حدوده التاريخية المحسوسة، وهي رغبة عبرت
عن نفسها بشكل آخر في الفكر الإصلاحي ، أعني محاولة استبعاد

-
- (١) اسماعيل راجى الناروقى ، الملل المعاصرة في الدين اليهودي (القاهرة :
مجمع البحوث والدراسات العربية ١٩٦٨) ٥٢ .
(٢) نفس الصفحة .
(٣) نفس المرجع ٩٠ .
(٤) تاريخ اليهود ٥٠٥ .
(٥) انظر « ٤ — طول الله في التاريخ » لاستيضاح المقصود من مصطلح
« التاريخ » ومشتقاته في هذه الدراسة .

العناصر القومية الموجودة في الدين اليهودي والتي تؤكد انعزال اليهود عن الأمم الأخرى . ولا تزال هذه العقلانية النسبية التي تحاول تقييم التراث في ضوء المعطى التاريخي وترفض الانعزالية القومية هي السمة الأساسية للتيارات الليبرالية والثورية في الفكر اليهودي .

وفي ضوء هذه المنطلقات العقلانية للفكر الإصلاحى اليهودى يمكننا أن ننظر للتعديلات التي أدخلها زعماء الحركة الإصلاحية مثل أبراهام جايجر Abraham Geiger (١٨٣٠ — ١٨٧٤) ، وكبير مفكرى الحركة ، ودافيد فرايدلندر David Freidlander (١٧٥٦ — ١٨٣٤) على العبادة اليهودية وعلى بعض المفاهيم الدينية .

قام الإصلاحيون بإلغاء الصلوات التي لها طابع قومى يهودى ، وجعلوا لغة الصلاة هي الألمانية لا العبرية ، وأدخلوا الموسيقى والأنشيد الجماعية ، كما سمحوا باختلاط الجنسيتين في الصلوات . وقد قام بعض الإصلاحيين ببناء بيت للعبادة أطلقوا عليه اسم « الهيكل » وكانت تلك أول مرة يستخدم فيها هذا الاسم لأنه كان لا يطلق الا على « الهيكل » الموجود في القدس ، أى أن الإصلاحيين بتسميتهم كنيسهم هذه التسمية الجديدة كانوا يحاولون تعميق ولاء اليهودى للوطن الذى يعيش فيه (١) . وعلى المستوى الفكرى، أعاد الإصلاحيون تفسير اليهودية على أساس عقلى ، وأعادوا دراسة الكتاب المقدس على أساس علمية ، ونادوا بأن الدين اليهودى ، أو العقيدة الموسوية ، وهى التسمية الأثرية لديهم ، يستند الى قيم أخلاقية تشابه قيم الأديان الأخرى ، كما ركز الإصلاحيون على الجوهر الأخلاقى للتلمود مهملين التحريمات المختلفة التى ينص عليها القانون اليهودى خاصة القوانين الخاصة بالطعام (٢) .

وعدل الإصلاحيون بعض الأفكار الرئيسية في الديانة اليهودية فننادى أبراهام جايجر « بحذف جميع الاشارات الى خصوصية الشعب اليهودى من كل طقوس الدين وعقيدته وأخلاقه وأدبه » (٣) ،

(١) اليهودية : تقييم تاريخى ٢٩١ — ٢٩٤ .

(٢) نفس الصفحات .

(٣) المال المفصرة ٥٢ .

أى أنه طالب بالتخلي عن فكرة الشعب المختار كلية . وقد حاول بعض الإصلاحيين الإبقاء على هذه الفكرة مع إعطائها دلالة أخلاقية جديدة ، فجعلوا الشعب اليهودى شعبا مختارا يحمل رسالته الأخلاقية لينشرها فى العالم أجمع ويمكن أن يشاء أن يؤمن بها . (هذا على طرف النقيض من الفكرة اليهودية التقليدية التى ترى أن الاختيار لا سبب ولا محتوى أخلاقى له ، بل هى مسألة صوفية يحفظها الغموض أو فعل ربانى لا يمكن للبشر — بما فى ذلك اليهود أنفسهم — ادراك كنهه) .

وعدل الإصلاحيون أيضا من فكرة العودة والمسيح المخلص الذى سيأتى فى آخر الأيام ليعود باليهود الى أرض الميعاد وليبدأ العصر المسيحانى ، ويحكم العالم ألف عام يسود فيها السلام والعدالة . حاول الإصلاحيون أن يضيفوا طابعا أكثر إنسانية وأقل قومية على هذه الأساطير الدينية ، فرفض ممثلوهم (فى مؤتمر بتسبرج) فكرة العودة الشخصية للمسيح المخلص ، وأحلوا محلها فكرة العصر المسيحانى ... عصر يحل فيه السلام والكمال . هذا العصر سيأتى من خلال التقدم العلمى والحضارى ، وسيؤدى الى خلاص كل الجنس البشرى ، والى انتشار العمران والصلاح فى كل بقاع الأرض بالتدريج . أن الله حسب هذه الرؤية يفصح عن نفسه بالتدريج من خلال التطور التاريخى البطيء ، وليس بغتة وبدون سوابق أو انذارات أو شواهد . أن الأسطورة تحولت الى رؤية يمكن تحقيقها بالتدريج داخل التاريخ ومن خلال ارادة الانسان الواعية ، كما أنها أصبحت رؤية شاملة ليست قاصرة على اليهود وحدهم بل تضم كل البشر . والإصلاحيون بتجريد هذه الأسطورة من قبليتها وعنصريتها ومن أبعادها الملتاريخية قد جعلوا من اليسر على اليهودى الاندماج فى الشعوب التى يعيش بينها ، وهو الأمر الذى أدى الى ضمور أسطورة العودة التى تثقل على وجدانه وتجعله دائم التطلع الى أفكار ومثاليات مجردة لا علاقة لها بواقعه المعاش (١) .

ونفس القول ينطبق على فهم الإصلاحيين لأسطورة الشتات ،

(١) تاريخ اليهود ٥٤٣ .

فالثبتات — حسب الفهم التقليدي — هو عقاب اليهود على خرقهم الميثاق مع ربهم الا أنه من المفهوم أنهم سيعودون الى أرض الميعاد في العصر المسيحي يقودهم مسيح ملك من نسل داوود ، وفي رواية أخرى تقليدية أن الثبتات — شأنه في ذلك شأن العودة والاصطفاء — لا سبب له ولا مبرر . أما الاصلاحيون فيؤكدون أن اليهود إنما شرعوا ليحققوا رسالتهم بين البشر ، أي أن الثبتات هو وسيلة لتقريبهم من الآخرين وليس لعزلهم عنهم (١) .

ويصل البرنامج الاصلاحى بتقدميته وتاريخيته وانسانيته الذروة في المبدأ الخامس الذى أعلنه مؤتمر بتسبورج : « نحن نرى في العصر الحديث ، عصر حضارة العقل والقلب الجامعة ، اقتربا لتحقيق أمل اسرائيل [للمسيحياتى] العظيم لأجل اقامة مملكة الحقيقة والعدالة والسلام بين جميع البشر . نحن لا نعتبر أنفسنا أمة بعد اليوم ، بل جماعة دينية ، ولذا فنحن لا نفوق عودة الى فلسطين ، أو عبادة قريانية في ظل أبناء هارون ، ولا استرجاعا لآى من القوانين المتعلقة بالدولة اليهودية » (٢) .

وتأثر الفكر اليهودى الاصلاحى بالفكر المسيحى واضح . فالفكر الدينى المسيحى يرى أن العهد الجديد قد أحل شكلا جديدا من الميثاق بين الرب والانسانية يتجاوز تخصيص العهد القديم لهذا الميثاق ، كما أن العهد الجديد يرى أن المسيح هو مخلص للبشر أجمعين وأن هذا الخلاص سيأخذ صورة مجتمع السلام المسيحى العالمى . أى أن الافكار المسيحية الانسانية ساعدت الاصلاحيين على تخلص التراث اليهودى من قبطيته ومن لا تاريخيته . فاليهودية الاصلاحية تمكنت من طرح هذه الرؤى الانسانية الرحبة لأنها تمكنت من أن تنفتح على التراث الانسانى بدلا من أن تغور داخل التراث اليهودى التقليدى (وهذا الانفتاح هو ما سترفضه اليهودية الارثوذكسية واليهودية المحافظة والضمهيونية كما سنبين فيما بعد) .

(١) المثل المعاصرة ٥٦ .

(٢) أسعد رزوق ، الدولة والدين في اسرائيل (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ١٩٦٨) ٢٢ .

وكما نرى خلقت حركة الاستنارة الأوروبية ، ثم حركة الهسكله واليهودية الاصلاحية من بعدها ، مناخا حضاريا مناسباً للغاية جعل من الممكن لليهود فيه الانتماء والاندماج مع الشعوب الأخرى . ورغم كل ادعاءات الصهيونية ، قامت معظم دول أوروبا باعطاء اليهود حقوقهم المدنية والسياسية ، وحقق اليهود قدرا كبيرا من الانتماء والتحرر داخل الدول التي يعيشون فيها . ونورد فيما يلي بعض التواريخ الهامة الخاصة بمنح اليهود حقوقهم مع ملاحظة أن كل هذه القوانين والاعلانات الدستورية والتصرفات قد صدرت في أقل من مائة وخمسين عاما ، وهي فترة قصيرة للغاية ، حتى لو نظر اليها من وجهة نظر الفرد اليهودي ، وليس من وجهة نظر التاريخ اليهودي أو الانساني :

- ١٧٨٧ دستور الولايات المتحدة يعلن أنه « لن يطالب أى مواطن يبحث عن عمل . . . أن يدخل امتحانا دينيا » .
- ١٧٨٩ اعلان حقوق الانسان والمواطن في فرنسا ، « يولد الناس ويبقون أحرارا متساوين في الحقوق » .
- ١٧٩١ المجلس الوطنى الفرنسى يمنح اليهود الجنسية الفرنسية .
- ١٧٩٧ إلغاء الحقو فى ايطاليا .
- ١٨١٢ فريدريك وليم الثانى ملك بروسيا يعلن أن اليهود مواطنون بروسيون .
- ١٨٣٩ اعلان المساواة فى الحقوق فى كندا .
- ١٨٤٨ المجلس الوطنى الألمانى فى فرانكفورت يعلن أن « ولاء الانسان الدينى لن يقرر أو يحدد حقوقه الوطنية أو السياسية » .
- ١٨٦٧ اجراء تعديلات دستورية فى النمسا والمجر لاعطاء اليهود حقوقهم .
- ١٨٧٠ سقوط روما فى ايدى القوات الاتحادية التى تقرر على الفور منح الحقوق السياسية لكل اليهود فى ايطاليا .

- ١٨٧١ الدستور الامبراطورى الالماني يلغى كل القواعد والقوانين
المنية على الفروق الدينية .
- ١٨٧٤ الدستور السويسرى يمنح الحرية الدينية للجميع .
- ١٨٨٧ معاهدة برلين تلغى كل القوانين التى تحد من حرية اليهود
فى رومانيا وبلغاريا .
- ١٩١٧ سقوط القيصرية فى روسيا والغاء « كل الامتيازات والقيود
الدينية والقومية » .
- ١٩٣٦ دستور الاتحاد السوفيتى يعلن أن « المنسادة بالعزلة أو
الكراهية العنصرية أو القومية جريمة يعاقب عليها
القانون » (١) .

٢ — فشل الهسكله وهزيمة العقل اليهودى

وهكذا نرى أن اليهودى قد أصبح يتمتع بحقوق وحرريات لم يكن
يحلم بها منذ سنين قليلة وحقق قسطا كبيرا من الاعتناق السياسى
والروحى . ولكن لم يقدر لهذه الحركة أن تؤتى أكلها كاملة (لأسباب
عديدة سنوردها فيما بعد) ، بل أن كثيرا من اليهود اعتقدوا أن
القوصل لصيغة معاصرة وعقلانية لليهودية يعنى القضاء عليها قضاء
ميرما ، وأن من الأفضل أن تستمر اليهودية فى الدوران داخل دائرتها
المخلقة ، ولذلك نشأت فى صفوف اليهود حركات دينية وسياسية
رجعية تتقصد التيار الاصلاحى والاستنارى وتطرح حلولاً وتصورات
جديدة لمشكلة الوجود اليهودى فى العصر الحديث .

ومن أهم المذاهب الدينية الرجعية فى العصر الحديث مذهب اليهودية
الأرثوذكسية التى تزعمها الحاخام سمسون رفاييل هرش
Samson Raphael Hirsch (١٨٠٨ — ١٨٨٨) . انتقد هرش
اليهودية الاصلاحية لأنها « تأخذ نقطة ارتكازها خارج اليهودية فى

(١) معظم هذه التواريخ منقول عن دائرة المعارف الامريكية طبعة عام ١٩٦٩ .

مبادئ مستعمارة من غير اليهود تطبيقها على غلبة الانسان وحرية (١) . ثم ينطلق هرش من نقطة ميتافيزيقية لا تقبل المناقشة وهي ان الله أوحى لموسى بالتوراة فوق جبل سيناء ، وهذه بالنسبة له حقيقة لا يمكن مناقشتها أو الجدل فيها ، وهي مقولة ثابتة ذات معنى عميق وثابت يلغى أى معنى آخر يختلف عنها (على عكس موقف كوفمان كوهلر Kaufman Kohler [١٨٤٣ — ١٩٢٦] الاصلاحي الذى يرى ان الوحي ليس نقطة ثابتة بل هي شيء مستمر) (٢) . ان التوراة هي كلام الله ، كتبها حرفا حرفا ، قيمها خالدة ازلية تنطبق على كل العصور ، ولولا التوراة لما تحقق وجود اسرائيل كشعب ، وعلى الشعب اليهودى اتباع هذا الكتاب المقدس الى ان ياتيه وحي جديد . ولأن عقل الانسان الضعيف لا يمكنه ان يخلق من الحكمة ما يفوق حكمة الله ، نادى هرش بعدم التغيير أو التبديل أو التطوير . (والطريقة التى طرح بها هرش القضية تنم عن تمسك بالحرفية الجافة ، فالوحي الالهى لم يبلغ العقل الانسانى أو الإرادة البشرية ، بل ترك مجالا كبيرا للانسان يتحرك فيه بحرية) .

كان من المنطقى لهرش بعد انطلاقه من نقطة البدء الثابتة هذه ان يتقبل هو واتبعاه من الارثوذكس المقولات اليهودية التقليدية والأساطير القديمة بكل بساطتها ومجافاتها لحقائق التاريخ والواقع . فالدين اليهودى حسب تصوره لم يكن مجرد عقيدة يؤمن بها اليهودى كحرد ، بل هي نظام دينى يفسر تاريخ اليهود ويغطى كل جوانب الحياة اليهودية . كما آمن الارثوذكس ايمانا حرقيا بالأساطير اليهودية مثل الاعتقاد فى العودة الشخصية للمخلص وبالعودة لفلسطين وبأن اسرائيل هو شعب الله المختار الذى يجب ان يعيش منعزلا عن الناس لتحقيق رسالته .

ومن المذاهب اليهودية الأخرى التى وقفت ضد التيار الاصلاحي مذهب اليهودية المحافظة التى تزعمها زكريا فرانكل Zechariah Frankel (١٨٠١ — ١٨٧٥) . نادى فرانكل (مثله فى ذلك مثل هرش والصهاينة) بأن أى تغيير أو تطوير لليهودية لابد

(١) المال المعاصرة ٧٧ .

(٢) آرثر هرتزبرج ، اليهودية ١٩ .

وأن يكون نابعا من أعماق الروح اليهودية لا من خارجها (١) . وعلى الرغم من أن غرانكل والمحافظين كانوا من المؤمنين بأن التوراة الشفهية خرافة ابتدعها الربابنة لكي يصفوا لونا من الحقائقية على ما أقره الإجماع الشعبي (٢) ، وعلى الرغم من أنهم رأوا أيضا أن التراث الدينى اليهودى ليس مرسلا من الله ، إلا أنهم لم يتخذوا موقفا نقديا أو متحررا من التوراة أو التراث اليهودى لأن كليهما تعبير عن روح الشعب اليهودى وعبقريته . ولذلك يؤمن المحافظون بالقانون اليهودى دائم التطور ، ولكن هذا التطور لابد وأن يكون متسقا مع منطق اليهودية نفسها ، وأن تظل الأشكال المختلفة المتغيرة تعبيراً عن عبقريتها . وقد اقترح المحافظون ، وبالأذات سلومون شختر Solomon Schechter ، الحاخام الصهيونى ، (١٨٤٧ - ١٩١٥) ، أنه بدلا من ترك الأمور كلية فى أيدي قلة من رجال الدين ، يقررون ويفسرون القانون ، يجب أن يقوم « متكلمون يمثلون الشعب اليهودى وينطقون باسم الجماعة » (٣) ، وبالتالي أصبحت عبارة « كلال اسرائيل » أو « اسرائيل المجموعة على هويتها » هى جوهر موقف اليهودية المحافظة ، وتحاول هذه الجماعة من المتكلمين اكتشاف روح اليهودية بدراسة التراث والتقاليد والأدب اليهودى . ويؤمن المحافظون بأن الأمل فى العودة فكرة أثيرة لدى اليهود لابد من المحافظة عليها ، وبأن هذا الأمل لا يتناقض بأى حال مع الولاء للوطن الذى يعيش فيه اليهودى ، ويرى المحافظون أن تكون الصلوات اليهودية بالعبرية (وأن كانوا لم يمانعوا فى أن تتلى باللغة المحلية إن لزم الأمر) .

والفروق بين اليهودية المحافظة واليهودية الأرثوذكسية طفيفة وغير جوهرية ، فكلاهما يضيفى هالة من القداسة على حياة اليهود وتاريخهم ، وهى قداسة يرجعها الأرثوذكس لأصول ربانية ويرجعها المحافظون لأصول قومية . كما أن الأرثوذكس والمحافظين يؤمنون بالعلاقة الوثيقة التى تربط الله بالشعب بالأرض بالتوراة ، وبأن هذه

(١) الملل الماصرة ٦٦ .

(٢) نفس المرجع ٦٥ .

(٣) نفس المرجع ١٧ .

العناصر تكون كلا لا تنقسم عراه . وفي حين أن الأرثوذكس يؤكّدون أهمية الله والوحى ، نجد أن المحافظين يبرزون أهمية الشعب وتاريخه . ولعله من المفيد أن نذكر أن المذهب المسيطر على الحياة الدينية في إسرائيل هو اليهودية الأرثوذكسية (١) . ولكننا على الرغم من ذلك نرى أن الفكر الصهيونى يشبه في كثير من الوجوه الفكر اليهودى المحافظ ، فبينما يؤكّد الأرثوذكس الأصول الساموية للتراث اليهودى يحاول المحافظون تغليفه وإضفاء مسحة من العلمانية الحضارية عليه ، وبينما يلغى الأرثوذكس التاريخ كلية نجد أن المحافظين يحاولون أن يضيفوا غلالة من التاريخية على تفكيرهم القومى ، وبينما يصر الأرثوذكس على مقولة أن الدين اليهودى هو القومية اليهودية وأن القومية هي الدين ، يحاول المحافظون تمويه هذه الحقيقة والتخفيف من حدتها بعض الشيء بالحديث عن روح الشعب المقدسة وجعلها هي مصدر القداسة بدلا من الله . إن اليهودية المحافظة هي اليهودية التقليدية بعد أن ارتدت زيا علمانيا ، وهذا هو جوهر الصهيونية . وقد اضطرت اليهودية المحافظة والصهيونية إلى ارتداء هذا الزي العلماني وإلى استغلال أساليب الهسكله لينجحا في أحباط مثلها وافشال محاولتها سلخ اليهودى عن انتمائه القومى الاسطورى .

ولعل التقابل الواضح بين اليهودية المحافظة والصهيونية يظهر في موقف زكريا فرائكل وبن جوريون من التراث اليهودى ، ففرائكل يرى أن الدين اليهودى هو التعبير الدينى عن روح الأمة اليهودية ، وهو بمثابة أجماعها الشعبى العام ، ولذا يجب ألا تثار مسألة ما إذا كان القاتنون من أصل ساموى أو أراضى ، فطالما أن القاتنون يعبر عن هذا الأجماع الشعبى العام فإنه يجب أن يبقى سارى المفعول (٢) . هذا الموقف يشبه في كثير من الوجوه موقف بن جوريون من أسطورة الوعد الذى قطعه الله على نفسه بمنح اليهود أرض كتعان ، فبالنسبة لبن جوريون لا يهم أن كانت هذه الواقعة حقيقية

(١) نفس المرجع ٨٧ .

(٢) نفس المرجع ٩٤ .

الهيئة أم لا ، بل المهم هو ان هذه الاسطورة مفروسة في الوجدان اليهودي ، ولذا يجب ان تبقى سارية المفعول حتى بعد أن يثبت أن الوعد المقطوع هو مجرد أسطورة شعبية ليس لها أى مصدر الهى .

وتنتهى الحركة الصهيونية الى حركة الردة هذه التى رأت أن العقل اليهودي غير قادر على التكيف مع الواقع التاريخي الجديد ، وأن على اليهود البقاء داخل مقدساتهم القومية . وفكرة فشل الهسكلاه فكرة تتكرر في معظم الكتابات الصهيونية ، بل أن حياة الزعماء الصهاينة أنفسهم تبين أن الارتداد عن الاستنارة لم يكن موقفا فكريا وحسب بل حقيقة عاطفية وشخصية أيضا .

ولنأخذ — على سبيل المثال — حياة ليونينسكى Leo Pinsker (١٨٢١ — ١٨٩١) الطبيب الروسى والزعيم الصهيونى . قضى بنسكى معظم حياته داعيا للاندماج والتخلى عن اليهودية المتخلفة ، ولكنه في أواخر حياته غير موقفه وأصبح من مؤسسى الصهيونية ومن دعاة الانعزال القومى . ونفس الظاهرة اتسمت بها حياة ثيودور هرتزل Theodore Hertzl (١٨٦٠ — ١٩٠٤) المؤسس الحقيقى للصهيونية كحركة سياسية ، فهرتزل بدأ حياته الفكرية اندماجيا وانتهى قوميا صهيونيا . وقد وصف بيرترسمولنسكين Peretz Smolenskin (١٨٤٢ — ١٨٨٥) الروائى الروسى اليهودى هذا الجانب من حياة الصهاينة في كتابه المسمى المتجول في سبيل الحياة . والكتاب يعد سيرة ذاتية روائية يتردد فيها الكاتب « مغامرات انسان يتيم راح يطوف عبر مختلف نواحي الحياة اليهودية المعاصرة في أوروبا ، ثم انتهى طوافه الى الموت في الدفاع عن شعبه خلال مذبحة روسية » (٤٣) ، أى أنه حاول أن يخرج الى الحياة الحرة العلمانية ، ولكن محاولته باءت بالفشل ، فعاد الى الجثو ليموت بين بنى جلده ، أبناء شعب الله المختلر . . انه يموت ميتة الشهداء مثله مثل الملايين الآخرين .

ويمكن أن نضرب عشرات الأمثلة الأخرى التى تعضد وجهة نظرنا ، ولكن من الأفضل أن نطرح سير المفكرين الصهاينة جانباً وأن ننظر الى كتاباتهم ذاتها . يقول بنسكى في كتابه الانعتاق الذاتى:

« يجب ألا نقنع أنفسنا بأن الإنسانية وحركة التنوير سيكونان أبدا دواء جوهريا لشفاء شعبنا من مرضه » (٩٦) . أما سمولنسكين فكان من المؤمنين بأن الهسكلاه « نظرية غريبة شاذة » وأن المسكيليم كانوا أناسا غير حكماء لم يعرفوا الماضي ولا المستقبل ، وهم لا يستوعبون معنى الحاضر » (٥٣) ، لأنهم يطلبون اليهود بتقليد « الجوييم الاغيار » (٥٤) . ان التنوير ، حسب تصوره ، هو الرفض الأعمى للماضي اليهودي ، وهو أيضا محاولة القضاء على كل « روابط المحبة والتضامن مع الجماعة » (٥٥) التي تربط الفرد اليهودي ببنى ملته ، وما الهسكلاه الا محاولة تؤدي باليهود في نهاية الأمر الى خداع النفس « بأمال كاذبة » ، والى الحديث عن « السلام في حين أنه ليس هناك أي سلام » (٥٦) . والصورة التي يقدمها سمولنسكين صورة كاركاتورية تتم عن عدم تفهم لطبيعة الهسكلاه الإصلاحية التدريجية . وفي نهاية مقاله الذي اقتبسنا منه يقول سمولنسكين : « كذلك أكدوا لنا بأننا بهذا (التنوير) سنستطيع تأسيس بيوت لنا حيثما تصادف وجودنا وندادوا بأنه يجب علينا أن نتخلى عن كل بارقة أمل في العودة الى أرضنا والعيش هناك بعزة مثل سائر الشعوب ، ولقد رأينا أن كل هذا لم يثمر شيئا ولم يحقق لنا الحب الذي نطلبه ، لذلك نقول : ان الكلب وحده هو الذي لا يملك ولا يريد أن يملك بيتا ، والانسان المتنقل طيلة حياته والذي لا يفكر أبدا في أن يؤسس بيتا لابنائه سيعتبر كالكلب » (٥٧) . أما ماكس نوردو فهو من المؤمنين بأن الهسكلاه نوع من النفاق لان اليهودي ينق طاقته في اخفاء شخصيته الحقيقية ، وهو يخاف أن يعرف الناس أنه يهودي من خلال شخصيته ، « فهو أبدا محروم من الكشف عن حقيقة نفسه » خوفا من أن تعرف شخصيته الأصلية ، « لذلك سلت قواه من الداخل فأصبح مرائيا من الخارج ، كأي شيء غير حقيقي ، مضطكوكريه في نظر كل الناس نوى المقاييس العليا » (١٣٥) . ويرى ميكا جوزيف بيرديشفسكى Micah Joseph Berdichevsky (١٨٦٥ — ١٩٢١) الروائي الروسي الصهيوني أن المسكيليم « رجال وجهين فهم نصف غربيين في حياتهم اليومية وأفكارهم ، ونصف يهود في كنسهم » (١٨٣) .

ونفس النغمة تتردد في كتابات وحياة موسى هس Moses Hess

(١٨١٢ — ١٨٧٥) المفكر الاجتماعي الألماني ، وواضع الأساس الفلسفي للصهيونية . بدأ هس حياته اشتراكيا ثوريا وصديقا شخصيا لكارل ماركس ، وفي كتاباته الأولى نجده ينحو منحى عقلانيا متطرفا ، فهو يعلن في مذكراته أن « الدين اليهودي والشرع الموسوي قد ماتا » (١٩) ، ولكنه في روما والقدس (١٨٦٢) يعلن توبته عن ثورته وعقلانيته الانسانية قائلا : « عدت الى شعبي بعد عشرين سنة من الاغتراب ، وهانذا اشارك شعبي مرة أخرى في اعياد أفراحه وفي أيام أتراحه ، في آماله وفكرياته » (٢١) .

واذا كان مندلسون هو فيلسوف الهسكلاه ، فإن هس هو فيلسوف النكسة الفلسفية التي صجرت عنها الصهيونية ، فالاشتراكية الانسانية التي تطالعنا في كتابات مندلسون ، والرغبة الصادقة في الانتماء للجنس البشري وللتطور التاريخي المحسوس يختفيان كلية في كتابات هس ، وبدلا من ذلك نجد نفس الاصرار القدرى القديم على أنه لا مفر من العزلة أو من دخول دائرة الوجود اليهودي .

واذا كان سمولنسكين قد سمى المستشرقين المندمجين بالكلاب ، واعتبرهم نوردو منافقين ، فإن هس هو الآخر أسهم في عملية السب هذمحين يقول : « أما اليهودي عديم الشرف ، فهو ليس ذلك النموذج القديم التقى الذى يفضل قطع لسانه على أن يتقوه بكلمة ينكر فيها قوميته ، إنما هو اليهودي العصري ... الذى يخجل من قوميته لأن يد القدر تضغط بقسوة على شعبه » (٢٤) . أن منطلق هس — كما نرى — هو افتراض أن حركة الهسكلاه قد وصلت الى نهاية المطاف ، وهو لهذا السبب هاجم اليهود الاصلاحيين لتخليهم عن قوميتهم ، وايد اليهود الأرثوذكس لتأكيدهم العنصر القومى . وهو يرى أن لكل جنس بشرى معناه الروحى ومهمته فى تاريخ العالم ، ومهمة اليهود فى العالم هى تحقيق العدالة الاجتماعية فى جماعة انسانية منظمة متحدة ، ولكن حيث أنه لا يمكن لليهود انجاز مهمتهم التاريخية الا كلمة ينبغى عليهم أن يحصلوا على قطعة أرض تكون وطنهم ، وعليهم العودة الى أرض الميعاد . وهكذا نجد أن رؤية هس « التاريخية » تماثل الى حد كبير الرؤية اليهودية التقليدية ، وهو لهذا قد أشار بكثير من الاستحسان الى كتابات الحاخام زفى هيرش كاليشر Zevi Hirsch Kalischer (١٧٩٥ — ١٨٧٤) الذى اقترح تأسيس جماعة لشراء الاراضى ولمساعدة اليهود فى العالم على الاستيطان فى فلسطين (١٤ — ١٧) . أن كل ملامح التفكير

المسيحيون وثقافته موجودة في كتابات هس : الإيمان بالآلة التي لها دور روحى خاص ، والهروب من العقل ومن التاريخ المحسوس الى عالم تسيطر عليه الأساطير والمطلقات المتغلقة على ذاتها .

والآن يحق لنا أن نتساءل : لماذا هذا الاحساس الغامر بفشل الهسكلاه ؟ ولماذا هذا الابتعاد عن العقلانية الإنسانية ؟ مما لا مرأى فيه أنه كانت هناك أسباب موضوعية جعلت من العسير ترجمة مثل الهسكلاه الى حقيقة أو واقع تاريخى ، ونحن نورد فيما يلى بعض هذه الأسباب :

١ - كان الاندماجيون والمسيحيون عادة من الارستقراطيين أو البورجوازيين الذين كان الاندماج لا يضرهم اقتصاديا ، إذ أن خبراتهم كانت من النوع المطلوب اقتصاديا ، فالأطباء والمهندسون - على سبيل المثال - يمتلكون من الخبرات ما لا يمكن لأى مجتمع - مهما كانت ميوله الدينية أو الأيديولوجية - الاستغناء عنه . ولكن أغلبية الجماهير اليهودية كانت تنتمى الى طبقة البورجوازية الصغيرة وتقف على هامش العملية الانتاجية فى المجتمع حيث تشتغل بالأعمال الكتابية وبأعمال الريا والسيرة . ان الاندماج بالنسبة لهذه الجماهير كان يعنى الهبوط فى السلم الاجتماعى ، فالمجتمع ككل لم يكن له كبير حاجة لهم ولذا فالحياة داخل أسوار الجتو لم تكن سيئة لهذا الحد بالنسبة لهم . وهذه الجماهير البورجوازية الصغيرة هى التى اعتمدت عليها الصهيونية وكل الحركات « القومية » اليهودية الأخرى ، وهى الجماهير التى تحمست لإنشاء أكبر جتو فى العالم : الدولة اليهودية .

٢ - رغم أن حركة اعتناق اليهود وما نشأ عنها من استعادة للحريات المسلوبة واسترداد للحقوق الضائعة كانت قد بدأت فى التحقق التدريجى ، إلا أنها - شأنها شأن أى حركة تاريخية أخرى - لم تأخذ شكلا مستقيما ، بل كانت هناك فكسات متعددة مثل مذابح عام ١٨٨١ التى أعقبت اغتيال القيصر نيقولاى الثانى ، قيصر روسيا .

٣ - ومما ساعد على الانتكاس الفكرى فى صفوف اليهود ظهور القوميات الرجعية ، فالقوميات التى ظهرت فى فرنسا وانجلترا والولايات المتحدة نشأت نتيجة لتطور تاريخى طبيعى ، وقامت البورجوازية - ذات المثل الليبرالية - بقيادة الثورة ضد الاقطاع .

أما القوميات السلافية والألمانية فالأمر مختلف بالنسبة لها ، فهي قوميات نشأت في مجتمعات متخلفة أوتوقراطية ولم تكن البورجوازية هي الطبقة الوحيدة القائدة ، بل أنه في بعض الأحيان كانت الأسر المالكة ، متحالفة مع طبقات الاقطاعيين وكبار الملاك ، تجد أن من صالحها تأييد الحركات القومية . ونتيجة لعدم التحدد الطبقي في القيادة نجد أن معظم هذه القوميات رومانسي في رؤيته يرتكز الى أساس ميتافيزيقي أسطوري ويطرح شعارات غائمة مثل « روح الشعب » ورسالة الأمة الخالدة . ومن سخرية الأقدار أن تكون هذه هي مزاعم اليهود بالنسبة لأنفسهم كأمة ، ولذا نظرت هذه القوميات الرجعية لليهودى على أنه ليس الغريب فحسب ، بل والغريم والمنافس الذى يجب القضاء عليه (ولعل هذا يفسر بشاعة اضطهاد النازيين لليهود) .

٤ — نشأت الصهيونية أساسا في روسيا وفي شرق أوروبا ، وهي بلاد لم تضرب الاستتارة فيها جذورا حقيقية . وقد أثر الصهاينة تجاهل وضع اليهود الذين يعيشون في البلاد التي تسود فيها الليبرالية لأن هذا لم يخدم غرضهم ، وقد قال حايم وايزمان Chaim Weizmann (١٨٧٤ — ١٩٥٢) الزعيم الصهيونى وأول رئيس لجمهورية اسرائيل : « ان الغرب بالنسبة للصهيونية كان ينتهى عند نهر الراين ، وخلف هذه الحدود كانت توجد أرض مجهولة » (١) . ولا تزال هذه الأرض حتى يومنا هذا أرضا مجهولة بالنسبة للصهاينة ، فالاستتارة لم تحدث ، والاندماج أن هو الاسراب على الرغم من أنه هو الحقيقة الأساسية في حياة اليهود في انجلترا وفرنسا والولايات المتحدة . ولذا كان هتلر بنازيته اللاعقلانية هو خير معين للصهاينة لأنه أثبت لهم ان اللاعقل قد انتصر وأن بلدا مستترا نسبيا مثل ألمانيا يمكن أن ينتكس في أى لحظة ليلقى باليهود في أفران الغاز .

٥ — بل اننا نجد أن يهود القوميات الليبرالية المتدمجين (في أمريكا وانجلترا وفرنسا) رغم عقلانية وضعهم الاجتماعى وأنسانيته قد وقعوا في قبضة الفكر الصهيونى المتخلف لأسباب عدة :

(١) موسى مينوهم ، تدهور اليهودية في العصر الحديث (بيروت : معهد الدراسات الفلسطينية ١٩٦٩) ٣١ .

(أ) أدى تعاطف يهود القوميات الليبرالية مع يهود روسيا وشرق أوروبا ، خاصة بعد مذابح كيшинيف الشهيرة ، الى احساسهم الشديد بالذنب ، وقد ترجم هذا الاحساس نفسه الى رغبة في مساعدة اليهود الشرقيين في محنتهم ، وقدمت الصهيونية نفسها على انها العلاج الوحيد والناجح لمشاكل اليهود .

(ب) وما زاد من التفاف يهود الغرب حول المثل الصهيونية المتخلفة وصول جماعات كثيرة من يهود الشرق الى انجلترا وفرنسا وأمريكا ، اذ كانت هذه الجماعات « المتخلفة » من اليهود تذكر كلا من اليهود المندمجين واخوانهم من الجويم بأصول اليهود المتخلفة وبالأساطير والطقوس العتيقة التي تدل على توزع ولاءاتهم . وكلما تم اندماج دفعة من المهاجرين كانت تصل دفعة أخرى مما كان يضطر اليهود ، المندمج منهم والقادم الجديد ، الى البدء من نقطة الصفر . ولذا كان الحل الصهيونى ، الذى يطالب بتحويل الهجرة الى أرض الميعاد فى آسيا بعيدا عن أوروبا ، هو الحل الأمثل بالنسبة للمندمجين . وقد تنبه هرقل الى هذه الحقيقة فى كتابه **الدولة اليهودية** حيث يقول : « ان هذا الضيق المكبوت عند اليهود المندمجين يظهر على شكل أعمال خيرية ، فهم ينظمون جمعيات هجرة لليهود القادمين ... لقد تأسست بعض هذه الجمعيات ضد اليهود المضطهدين وليس من أجلهم فقد كان لسان حالهم يقول تخلصوا من المعوزين بأسرع ما يمكن ، وأرسلوهم الى أبعد مكان ممكن » (١٠٩) .

(ج) استقطبت الحركات الثورية فى ألمانيا وروسيا وبولندا وغيرها من البلدان فى شرق أوروبا ، بل وفى غربها ، كثيرا من المثقفين اليهود الى درجة جعلت الوجود اليهودى فى هذه الحركات ملحوظا للجميع مما أزعج القيادات اليهودية المندمجة فى المجتمعات البورجوازية فى الغرب . ولهذا السبب كان من المنطقى أن تشجع هذه القيادات الحركة الصهيونية على امتصاص هؤلاء المثقفين وعلى تحويلهم عن الطريق الثورى الى طريق الصهيونية القومى الفيبى .

هذه هى بعض الأسباب التى أدت الى انتشار الصهيونية فى صفوف يهود الغرب ، ولكن يجب أن نلاحظ أن أيمن يهود الغرب

بالصهيونية لم يكن ايماننا كاملا بل كان ايمانا عمليا جزئيا ، فهم كانوا من المؤمنين بأن الحل الصهيونى اللاعقلانى ملائم ليهود الشرق فحسب ، أما بالنسبة لهم فالحل المستثمر العقلانى كان الحل الأمثل ، وهذه خلطة فكرية انتهازية من الدرجة الأولى تتسم بضرب لا نظير له من الشيذوغرافيا الفلسفية . ولعل هذا الجانب من الفكر الصهيونى فى الغرب هو الذى دفع أحدهم لتعريف الصهيونى الغربى بأنه يهودى يجمع التبرعات من يهودى آخر لارسال يهودى ثالث لأرض الميعاد .

يمكننا القول أن كل هذه الأسباب مجتمعة قد أسهمت دون شك فى اعاققة تحقيق مثل الاستنارة ، ولكن هناك أسبابا ذاتية خاصة بتوقعات اليهود والصهاينة من الهسكلاه وخاصة بتصورهم لأنفسهم ولدورهم فى التاريخ والمجتمع ، أى أنها أسباب تتعلق باليهود فى حد ذاتهم وليس بوضعهم الاجتماعى — هذه الأسباب أعقلت هى الأخرى محاولة ترجمة مثل الهسكلاه الى واقع وحقيقة :

١ — نعتقد أن هناك خطأ أساسيا فى طريقة طرح الصهاينة للمشكلة اليهودية وفى طريقة تقييمهم للهسكلاه ، فقد بسطوا الطول المطروحة للمشكلة اليهودية بشكل متطرف ، وقرروا أنه لم يكن أمام اليهود سوى خيارين : إما النوبان الكامل عن طريق الاندماج أو الفناء الكامل عن طريق المذابح مما جعل الحل المنطقى الوحيد هو الهجرة « لبعث اسرائيل فى أرض أجدادها حيث تستطيع الأجيال القليلة القادمة أن تحيا حياة قومية عادية الى اقصى حد » (٧٨) على حد قول موشيه لايب ليلينبلوم Moshe Leib Lilienblum (١٨٤٣ — ١٩١٠) الداعية الصهيونى الروسى . ونحن من تجربتنا التاريخية نعرف أن كل هذه الاحتمالات مجرد تصورات نظرية ومجردة ، فاليهود الذين يعيشون فى عالم الجويم لم يقدر لهم النوبان الكامل ولم يكن مصيرهم الدمار الشامل ، كما أن الهجرة اليهودية (من شرق أوروبا) فى أواخر القرن التاسع عشر لم تتجه الى أرض الميعاد بل اتجهت الى أوروبا الغربية أو الى العالم الجديد . ولو راقب الصهاينة حركة الواقع المحسوس — كما فعل المؤرخ اليهودى سيمون دوبنوف Simon Dubnow (١٨٦٠ — ١٩٤١) — بدلا من الوقوع فى أسار التعميمات الغائمة لطرحوا حولا للمشكلة اليهودية أكثر تقدمية وعقلانية من حلم الغيبى .

٢ — بدأ الصهاينة في اعلان فشل الهسكلاه بعد مرور أعوام قليلة من ظهورها ، وهذا دليل آخر على تجريدية العقل الصهيونى ، فنحن عادة لا نستخدم مصطلحات مثل « النجاح » و « الفشل » حينما نشير الى الحركات الفكرية والظواهر الحضارية المختلفة ، فالأفكار تأخذ مئات السنين لتتحول الى واقع سياسى ، وفى خلال هذه الفترة تأخذ الفكرة ألف شكل وشكلا . فالواقع يغير المثل والحقيقة السياسية لا يمكن أن تكون مطابقة للحقيقة الفكرية ، هذا الا اذا نعيش داخل أنابيب الاختبار او نخرج من معامل اتوماتيكية معقمة ، ولكننا — والحمد لله — لا زلنا نعيش فى عالم أكثر تركيبا . بل اننا اذا نظرنا الى واقع اليهود والتاريخى لوجدنا أن انعتاق اليهود فى أوروبا — شرقها وغربها — وفى العالم الجديد تم بسرعة «ونجاح» مذهلين ، اذا ماقيس بظواهر سياسية مماثلة مثل تحرير الزوج فى أمريكا الشمالية ، ولكن الصهاينة لم يقيموا هذا النجاح التاريخى النسبى لأنهم كانوا منشغلين بقرع نجاحهم والعودة الى أرض الميعاد والخلام الأبدى والحياة الأزلية .

٣ — ويبدو أن الصهيونى — وهو وريث فكرة « الشعب المختار » — لا يحكم على نفسه بالطريقة التى يحكم بها على الآخرين ، فالعقل اليهودى منذ بداية التاريخ قسم العالم الى « أنا » و « الأغيار » ، اليهودى والجويم ، وما يسرى على الواحد لا يسرى على الآخر وبالعكس ، ولذا فالقياس التاريخى السليم الذى يساعد المرء على تقبل الحدود التاريخية أو على رفضها بالشكل المعقول، يصبح عملية صعبة للغاية — ان لم تكن مستحيلة بالنسبة للصهيونى . ولناخذ موقف الصهاينة واليهود عامة من النازية : من المعروف للجميع أن الجيوش النازية قد ألحقت الدمار ببلاد أوروبا عديده ، وأن الاتحاد السوفيتى بمفرده قد فقد عشرات الملايين من الضحايا فى حربه ضد النازية وفقد أيضا معظم صناعاته . ولكن اليهود الصهاينة يتناسون هذه الحقيقة ليركزوا على مالحق بهم هم وحدهم من دمار ، حتى نجحوا فى خلق انطباع عام لدى كل المتقنين فى العالم بل ولدى معظم الجماهير مؤداه أن النازية كانت تصب عليهم وحدهم جميع غضبها . ومما ساهم فى انجاح محاولتهم هذه ان العناصر اليهودية تلعب دورا كبيرا فى تسير دفة وسائل الاعلام فى أوروبا ، ولكن الأهم من ذلك هو أن كل ضحايا النازية الآخرين

قد تغلبوا على جراحيهم وعادوا الى عملية الخلق الحضارى ، اما الصهيونى فلا يزال يتأمل جرحه معتقدا انه استمرار للجرح القديم الذى لا يندمل . واذا نظرنا الى حالة اليهود كأقلية فى القرن التاسع عشر لوجدنا انهم كانوا اسعد حظا بكثير من غيرهم من الاقليات (مثل الأرمن مثلا الذين تحالف هرتزل مع السلطان التركى ضدهم) ، ولكن الآخرين لا علاقة لهم باليهودى . لقد اصطفاه الله دون العالمين ولذا فهو الضحية الوحيدة ، ولا يمكن ان يقاسمه احد هذا الشرف .

٤ — كانت الجماعات اليهودية فى أوروبا هي أكثر القطاعات الانسانية تخلفا ، اذ أن الجتو انغلق على نفسه مئات السنين محتفظا بصفاته التى اتسم بها فى العصور الوسطى . لقد مر عصر النهضة وعصر الإصلاح الدينى على أوروبا دون أن يتركها أى أثر على الجتو ، ولذا فحينما بدأت حركة الاستنارة كانت كل أوروبا معدة لها فى حين أن اليهود لم يكونوا معدين حضاريا أو نفسيا ، أو كما يقول نحمن سيركين Nahman Syrkin (١٨٦٧ — ١٩٣٤) المفكر الصهيونى « الاشتراكى » : « ان اعلان حقوق الانسان قد حرر اليهود بشكل مفاجئ من عبودية القرون الوسطى ومنحهم المساواة السياسية والمخنية بدون أى جهد من جانبهم ، لقد حقق اليهود تحررهم صدفه عن طريق انتصار مبدأ المساواة دون أن تكون لهم قوة ذاتية حقيقية تسفدهم أو قوة منظمة فعالة تبدأ عملية انعتاقهم » . (٢٢٠)

كان على اليهودى أن يعيد صياغة ذاته ونفسيته بل والطريقة التى يرتدى بها ملابسه ويقص شعره ، كما أنه ، وهو الذى يدين بولاء غامض لتلك البلاد البعيدة التى لم يرها قط فى حياته — أرض الميعاد — كان عليه أن ينمى فى ذاته ولاء محدد للبلد الذى يعيش فيه ، وهذا أمر لم يكن هينا على كثير من اليهود .

٥ — كان من صالح بعض القيادات الاجتماعية والدينية داخل الجتو ذاته أن تظل العزلة مضروبة على اليهود ، حفاظا على الجماهير اليهودية كأيد عاملة رخيصة يستغلها المستثمرون اليهود تحت شعار الرابطة الدينية .

٦ - نتيجة لهذا الوضع وقعت غالبية الجماهير اليهودية في شرق أوروبا في قبضة التيارات الدينية المتخلفة (الأرثوذكسية والمحافظة ومن بعدها الصهيونية) وهي تيارات قدمت رؤية منفقة وقبالية للحياة اليهودية مستندة الى فهم ضيق للتراث الدينى اليهودى .

لا غرو ان كثيرا من اليهود اعتقدوا ان حركة الهسكله كانت تعنى التخلّى الكامل عن اليهودية، لأن اليهودية - حسب تصورهم - كانت غير قابلة للتطوير ، وفي هذا يقول أحاد هعام Ahad Ha'am (١٨٥٦ - ١٩٢٧) مؤسس مدرسة الصهيونية الروحية : « ان اليهودية اذ تخرج من أسوار الجتو الاتعزالية تتعرض الى خسارة كيائها الأصلى ، أو على الأقل وحدتها القومية وتصبح مهددة بالانقسام الى أكثر من نوع واحد من اليهودية » (١٥٩) . ولعل هذا هو السبب فى أن « المسكيليم وجدوا أن من الاهون خلق قالب جديد لتابعى الهسكله من القيام باصلاح طريقة الحياة اليهودية مع الابقاء فى الوقت ذاته على الصفات اليهودية » (١٤٦) . ويكرر توردو نفس الفكرة أو النغمة فى كتاباته اذ يقول : « كانت كل العادات وانماط السلوك اليهودية تهدف دون وعى الى شىء واحد ، الحفاظ على اليهودية ، وذلك بعدم الاختلاط بالجويم من اجل الحفاظ على المجتمع اليهودى ، ولتستمر فى تذكير الفرد اليهودى بأنه سيضيع ويهلك ان هو تخلّى عن شخصيته الفريدة . **(وهذا الدافع نحو الانفصال عن الغير كان منبع كل قوانين الطقوس الدينية التى كان يعتبرها اليهودى عادة بمرتبة إيمانه ذاته « (١٣٣) ، ولذا لم يكن من الغريب أن يحذر سمولنسكين اليهود من أى تجديد أو تطوير . ان اتباع الهسكله - حسب تصوره - فيه قطع « لكل جذور الحياة » بالنسبة لليهود (٥٤) ، وفيه تقويض لبيت إسرائيل كليا (٥٥) .**

وقد بلور هس هذه الفكرة حين قال ان الدين اليهودى قد أصبح مصيبة أكثر منه دينا خلال الألفى عام الماضية ، ولكنها مصيبة لا فكاك لليهودى منها ، فعليه ان « يتحمل نير مملكة السماء حتى النهاية » ، ويرى هس أن المسكيليم مخطئون ان ظنوا « أن باستطاعتهم النجاة من هذه المصيبة بالتنور أو التنصر » (٣٩) . وهو فى مكان آخر يبين عبث محاولة تطوير الدين اليهودى فيقول :

« حاول المتنورون أن يعرضوا المسرح اليهودي الى ضوء الثقافة الحديثة وذلك بخرق القشرة الصلبة التي سلح الحاخامات اليهودية بها . لا يستطيع أحد حتى مندلسون العظيم أن يفعل هذا الشيء دون أن يخرب لب اليهودية الداخلي » (٢٦) . اذا كان اللب نفسه قبلها ومتخلفا وضيقا فان أى دعوة نحو العالمية والشمولية هي في صميمها دعوة للقضاء على اليهودية . يقول هس : « ان الهسكلاه قد نالت بعدم الايمان بقوميتنا كأساس للدين اليهودي فليس غريبا انن الا تؤدي هذه الاصلاحات الا الى عدم الاكتراث باليهودية والتحول الى النصرانية » (٢٦) .

لقد توصل مفكرو الصهاينة الاول الى انه لا يمكن فصل الدين عن القومية ، وبالتبعية لا يمكن ادخال المثل الليبرالية المستنيرة على اليهودية . ولقد كان الصهاينة محقين الى حد ما في مخاوفهم ، فبعد أن جرد مندلسون الدين اليهودي من القيم القومية ، لم يتبق منه سوى قيم روحية عامة لا تختلف عن قيم أى دين آخر ، ولذا وجد الكثير من اتباع مندلسون انه من المنطقي أن يعتقدوا الدين المسيحي . بل أن اليهودية الاصلاحية بدأت كمذهب بمحاولة الانضمام الى الكنيسة اللوثرية في ألمانيا ، على شرط أن يقسم اللوثيريون بادخال بعض التعديلات الطفيفة على الطقوس الكنسية (وبالطبع رفض هذا الطلب) .

ونحن نرى أن سيادة التيارات الرجعية بين الجماهير اليهودية وتوقعات اليهود والصهاينة غير المنطقية من حركة الهسكلاه هو ما اقنع أعدادا كبيرة من هذه الجماهير بأن التنوير قد غشل وأنه لابد من البحث عن البديل ، وقد قدمت الصهيونية نفسها على أنها هذا البديل — بمعنى أن الأسباب الذاتية الخاصة باليهود وبالمجتمع اليهودي أسهمت بشكل فعال في تحديد مسار التاريخ اليهودي في عصرنا الحديث .

ولكن الصهيونية قدر لها أن تلعب دورا خطيرا في حياتنا العربية وفي السياسة العالمية لأن الدول الامبريالية ، خاصة انجلترا (ومن بعدها الولايات المتحدة) قد تبنتها ودعمتها . ولكن على الرغم من أن ظهور المصالح الامبريالية على مسرح الأحداث كان هو العنصر

الحاسم من الناحية السياسية ، بل وكان هو العنصر الذى أدى الى انتصار الصهيونية على ما عداها من الحركات الفكرية اليهودية الأخرى ، الا انها لم تتدخل فى صياغة بنية الصهيونية بشكل جوهري . فالصهيونية اكتسبت طابعها الفريد وشكلها المميز من الواقع اليهودي الذى نشأت فيه ، وبعد أن ظهرت كبنية متكاملة بدأت الدول الاستعمارية فى تبنيها ودعمها ، أى أننا لا يمكن أن ندرس الصهيونية كبنية متكاملة محددة المعالم وكظاهرة ذات شكل خاص بتحليل المصالح الامبريالية فى نهاية القرن الماضى . مثل هذا التحليل قد يفسر لنا نجاح المخطط الصهيونى أو انجذاب بعض قطاعات اليهود للصهيونية أو اهتمام الصحافة والمسؤولين فى الغرب بأمور أخلاقية مثل « مصر اليهود » و « المشكلة اليهودية » ، ولكنه لن يفسر لنا أبدا خصوصية بنية الصهيونية . هذا لا يعنى البتة أننا يمكننا اغفال المصالح الامبريالية والعوامل الاقتصادية الأخرى من حسابنا ، فدراسة تاريخ الصهيونية كحركة سياسية ودراسة تاريخ اسرائيل وواقعها الاقتصادى والسياسى غير ممكن دون أخذ هذه المصالح والعوامل فى الاعتبار . ولكننا ونحن بصدد وصف بنية الصهيونية نجد أن الامبريالية لم تكن أحد المكونات الأساسية لها .

وللقاء مزيد من الضوء على هذه الفكرة يمكن أن نضرب مثلا بجماعات المهاجرين القومية الفاشية الصغيرة (الأوكرانية واللاتفية واليوغوسلافية) المنتشرة فى أوروبا وأمريكا . هذه الجماعات لها أيديولوجيات وتصورات مثالية فاشية ذات طابع أسطورى ، فهي لا تزال تدور فى إطار الأفكار القومية البورجوازية التقليدية ، وهى بنىات فكرية قد تحدثت وتشكلت ، وأن كان لا يدرك بها أحد الا العلماء المتخصصون . ولكن قد يأتى اليوم الذى ترى فيه إحدى الدول الامبريالية امكانية استخدام واحدة من هذه الجماعات ، وقد تتبناها وتشجعها ، وقد تدرب أعضائها على حرب العصابات تمهيدا « لتحرير » إحدى الدول الاشتراكية ، ولكن هذا لن يغير من بنية فكر هذه الجماعة فى شيء .

بنية الصهيونية

١ - لا عقلانية الصهيونية

على الرغم من أن الصهيونية هي الحركة الفكرية اليهودية التي حلت محل الهسكلاه إلا أنها لم تكن وريثتها ، فالفكر الصهيوني ليس نتاج الفكر الاستقاري العقلاني الذي يؤمن بالدولة العلمانية المبنية على التنوع وعلى الصراع وعلى تقبل جميع المواطنين باختلاف مللهم ، وإنما هو فكر غيبي لا عقلاني . وتموج الكتابات الصهيونية بإشارات الى تفوق العاطفة على العقل ، واللجوء على الوعى ، والمطلقات الصوفية على الظواهر التاريخية الانسانية .

Eliezer Ben Yehudah

يقول اليعازر بن يهودا

(١٨٥٨ - ١٩٢٣) أحد رواد النهضة العبرية الحديثة : « يتحرك قلب الانسان بالعاطفة وليس بالعقل ... لأن قلب الانسان - حتى قلوب المسكليم - هي قلوب رقيقة يمكن التغلب عليها بمثل هذه العاطفة » (٦٤) . أما موسى هس فيلسوف الردة الفكرية التي صدرت عنها الصهيونية فهو في عودته لشعبه يعود لعاطفته : « لقد تبين لى أن العاطفة التي ظننت أنى قد كبتها عادت الى الحياة من جديد ... تأججت هذه العاطفة نصف المخنوقة في صدرى محاولة التعبير عن نفسها » (٢١) . وهو يحدد العاطفة بأنها عاطفة صوفية « انها التفكير في قوميتى التي ترتبط برباط لا تنقسم عراه بقرات أسلافي وبالأرض المقدسة وبالمدينة الخالدة » وما الى ذلك من أشياء سمرمية ! وهو يعنى لا عقلانية موقفه الجديد ، اذ يؤكد أن العودة هي عودة لمجرى التاريخ اليهودى « الذى أهمله

العقلانيون كثيرا » ، وأن استمداد « الإلهام من منابع اليهودية الرئيسية » سيوقظ في الأئمة اليهودية الروح الوطنية التي تحل بها الأنبياء والحاخامات « وفي هذا خير رادع للعقلانية الهدامة » (٢٩) . وأسطورة العودة الى أرض الميعاد تفسر على أنها عودة للأرض التي يمكن لليهودي أن يطلق فيها العنان لخياله وعواطفه . يقول الحاخام أبراهام اسحاق كوك (Abraham Isaac Kook) (١٨٦٥ — ١٩٣٥) : « لا يستطيع اليهودي أن يكون مخلصا وصانقا في أفكاره وعواطفه وخیالاته في أرض الشتات كما يكون في أرض اسرائيل . فالوحي المقدس ، بأي درجة كان ، يكون نقيًا فقط في أرض اسرائيل ، أما في خارجها فانه يكون مشوشا ملوثا وغير نقي » (٢٩٥) . ويكشف موشيه ليلينبلوم يهوديته حينما يتعجب : « انى لمسرور اذ تعذبت ، فأتحت لي الفرصة على الأقل كي أشعر بما كان يشعر به أجدادي كل يوم في حياتهم . كانت حياتهم كلها عبارة عن رعب طويل ، فلم اذن لا أمارس الشعور بذلك الخوف الذي ملا حياتهم » (٦٩) . ان اكتشاف الخوف جعله يهجر المثل المستنيرة ليستخدم المصطلح الصوفي : « عندما تفتحت عيني على المثل الأعلى الجديد وارتفعت روعي لمستوى العمل الجديد الذي يكمن فيه خلاصنا الأبدى .. تركتني المثل القديمة [المستنيرة] في لمح البصر » (٧٠) .

ان الصهيونى يهرب من عالم العقل والتاريخ والواقع الى الاساطير والغيبيات القديمة ، ولكنه في القرن التاسع عشر والعشرين في أوروبا لم يكن في مقدوره العودة الكاملة للتراث اليهودي القديم ، وهو تراث كان يعاني أزمة حضارية بسبب الظروف الجديدة في أوروبا ، ولذا لجأ الى صيغة معاصرة للغيبية القديمة ألا وهي الفكر الصهيونى .

وهنا قد يحق للقارئ ان يتساءل عن تفسير لظاهرة سيطرة أفكار غيبية مثل الصهيونية على مجتمع صناعى متقدم يسخر العلم والتكنولوجيا لخدمته مثل المجتمع الاسرائيلى . وللد على هذا التساؤل بشكل مباشر يمكننا أن نستشهد بحالات مماثلة في التاريخ الحديث مثل مجتمع الأبارثيد أو التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا ، والمجتمع الالماني تحت حكم النازى . فالإيديولوجية النازية الغيبية جندت الشعب الالماني وحولت المجتمع بأسره الى ترسانة حربية

صناعية هائلة على جانب كبير من الكفاءة ، ثم تحركت الجيوش الألمانية بعد ذلك تلك البلاد الأوروبية الواحدة تلو الأخرى .

وعلى الرغم من كل هذه الاستشهادات الا اننا لا نزال في حاجة الى تفسير ، ويمكننا القول ان الوعي الزائف يتحكم في رؤية المجتمع ككل وفي رؤية الأفراد لدورهم كمجموعة بشرية ، ولكنه مع ذلك لا يتدخل في سلوك الأفراد اليومي أو في طريقة تعاملهم مع الواقع . كان ايخمان على سبيل المثال يسلك سلوكا متحضرا للغاية في حياته الشخصية ، فقد كان حريصا كل الحرص على ان يحضر لزوجته زهورا في عيد ميلادها ، كما كان يستمع بشغف شديد الى موسيقى فاجنر بينما كانت جثث اليهود تحترق في الأفران على بعد خطوات من مكتبه . وهناك مثل أكثر درامية ودلالة ، أعفى عملية التخلص من يهود أوروبا ، فقد تم نقل ملايين اليهود من بلادهم الى ألمانيا بسرعة باهرة ، ثم فرزوا وقسموا الى مجموعات حسب أعمارهم وجنسهم ، ثم سيقوا بعد ذلك لأفران الغاز حيث تم إبادة كاملة دون أن يترك أى أثر . وقد أبقى النازيون « العادم الاقتصادى » عند الحد الأدنى ، فشعر اليهود قد صنع منه فرش جيدة للأحذية ، أما حشو أسنانهم فقد صهر وحول الى سبائك ذهبية استفاد منها الاقتصاد الوطنى الألمانى ! هذه العملية الناجحة (٤) تعد من أكثر العمليات التى عرفها الإنسان الحديث دقة وتنظيما ، رغم أنها تهدف الى تحقيق مثل غيبية فاشية لا انسانية ، بل اننا يمكننا القول انه لا يمكن أن يقوم بمثل هذه العملية سوى مجتمع صناعى على جانب كبير من التقدم (٤) والفاشية مثل المجتمع الألمانى فى منتصف القرن العشرين .

ونفس الظاهرة يتسم بها المجتمع الاسرائيلى ، فهو مجتمع قد حدد أهدافه بطريقة أسطورية ، ولكن المواطن الاسرائيلى حينما يتعامل مع الواقع فإنه يسلك سلوكا علميا دقيقا ، صارما فى دقته . ولناخذ موسى ديان على سبيل المثال ، فهو حينما يتحدث عن الغرض من فتوحاته وغزواته فإنه يستدل بالتوراة والتلمود والأقاصيص الشعبية . فالجولان لابد من ضمها لأن القضية اليهود كانوا هناك ، وسيناء لابد من غزوها لأنها كانت جزءا من اسرائيل فى الماضى السحيق ، وحدود اسرائيل مسألة تقرر حسب رؤى

العهد القديم ، اى انه حينما يحدد ديان أهدافه بالمعنى العلم فانه يصدر عن رؤية غيبية غير علمية ، وعن مجموعة من الاساطير الدينية القومية التى لا سند لها فى الواقع أو التاريخ . ولكن حينما يحرك ديان جيوشه فانه يتبع أحدث الاستراتيجيات العسكرية ويستخدم آخر المخترعات العلمية ، فالغيبية قاصرة على الرؤية ولا تنسحب على طريقة التعامل مع التفاصيل اليومية .

ومما ساعد على قيام هذا الوضع أن العناصر القيادية فى المجتمع الاسرائيلى والأقلية المسيطرة عليه هى نتاج أوروبا بترائها العلمى العريق وبيمانها بالتجريب كوسيلة للمعرفة ، وهى باحتكاكها بهذا التراث وتمرسها الطويل فيه أصبحت واعية بفائدته قادرة على استخدامه فى تحقيق أهدافها (انظر أيضا : « ٦ - التجريبية الانتقائية ») .

٢ - الأمة المقدسة

يستند اى برنامج سياسى الى رؤية للانسان ونظرة للتاريخ ، فالبرنامج النازى كان يصدر عن فكرة تفوق العنصر الارى وعن تصور محدد للتاريخ الالمانى وللتاريخ البشرى ككل . والبرنامج السياسى الصهيونى لا يثذ عن هذه القاعدة ، فالصهاينة يطرحون تصورا محددًا للأمة اليهودية وللتاريخ اليهودى والانسانى . ومما له دلالة أن بيان « اعلان استقلال اسرائيل » رغم أنه دون شك بيان سياسى بالدرجة الأولى ، الا أنه يتضمن رؤية للتاريخ اليهودى وبعض التعميمات المتعلقة بالهوية اليهودية . يقول البيان : « أن أرض اسرائيل هى المكان الذى ولد فيه الشعب اليهودى ، وهنا تشكلت ذاتية اليهود الروحية والدينية والقومية، وهنا حصلوا على استقلالهم وخلقوا حضارة لها محوى قومى وعالى ، وهنا كتبوا الكتاب المقدس وقدموه للعالم » . وبعد الحديث عن نشأة الأمة اليهودية يستطرد البيان ليتحدث عن حالة اليهود النفسية بعد الشتات : « حافظ الشعب اليهودى على ولائه لأرض اسرائيل بعد نفيه منها الى بلاد الشتات ، ولم يقف قط عن الصلاة والأمل فى العودة وفى استرجاع حريته القومية . هذا الارتباط بالأرض دفع اليهود الى الكفاح عبر القرون للعودة الى أرض آبائهم

ليستعيدوا كيانهم كدولة مستقلة . وقد عادت [بالفعل] جماهير
عديدة في السنين الأخيرة » (١) .

ثمة تصور ما للتاريخ اليهودي وللنفس اليهودية انن يستند اليه
البرنامج السياسى الصهيونى ، واذا كانت دراسة مثل هذه
التصورات مسألة هامة لفهم أى برنامج سياسى ، فان أهميتها
تتضاعف اذا كنا بصدد دراسة الفكر الصهيونى لأن الصهيونية
أعطت أهمية غير عادية للتاريخ والتراث اليهوديين ، كما أنها رأت
وجود ارتباط واضح بين اليهودى كفرد وكعضو فى جماعة بشرية
من جهة والتاريخ اليهودى من جهة أخرى . فدراسة رؤية الصهاينة
للإنسان اليهودى وفهمهم للتاريخ هو فى تقديرى خير السبل للاحاطة
بالبرنامج السياسى الصهيونى وبنية الفكر الصهيونى ككل .

ولفهم الرؤية الصهيونية للنفس البشرية (اليهودية وغير
اليهودية) وللتاريخ اليهودى والإنسانى لابد من العودة للتراث
اليهودى القديم ولتصور اليهود لله ، فعلاقتنا بالله (المطلق) تلقى
كثيرا من الضوء على علاقتنا بالتاريخ (النسبى المتغير) . ونحن
اذا ما نظرنا الى العهد القديم لوجدنا اشارات عديدة الى الله على
انه كائن له خصائص انسانية وأنه ليس معصوما من الخطأ
أو الغضب أو الخجل . فهو على سبيل المثال رجل حرب (خروج
١٥ : ٤) ، وهو يأمر اليهود بقتل النساء بل والأطفال والذكور
(عدد ٣١ : ١ - ٣) ، وهو رب قوى الذراع يأمر شعبه بالآ يرحم
أحدا (تثنية ٧ : ١٦ - ١٩) . كما أن مقاييسه الأخلاقية تختلف
حسب الزمان والمكان وحسب ما تمليه الاعتبارات العملية ، فهو
يأمر الشعب المختار بضرب جميع الذكور بحد السيف فى المدن
البعيدة عن أرض الميعاد، أما سكان مدن أرض الميعاد ذاتها فمصرهم
الآبادة ذكورا كانوا أم أناثا أم أطفالا ، وذلك لأسباب عملية
معروفة .

(١) والتر لاكر (محرر) قراءات فى الصراع العربى الاسرائيلى : تاريخ وثائق
لصراع الشرق الأوسط (نيويورك : بانثام بوكس ١٩٦٩) ١٢٥ .

والتصور اليهودى لله فى مرحلة ما قبل النفى كان يجعل منه الها قوميا خاصا بالشعب اليهودى وحده بينما نجد أن للشعوب الأخرى آلهتها ، ففي سفر الخروج (١٥ : ١١) وفى الوصايا العشر (خروج ٢٠ : ٤) اشارات لآلهة أخرى .

وفى قصة راعوث (١ : ١٥) ثمة إشارة الى شعبها وآلهتها . ولذلك نجد أن هذا الاله اليهودى القومى يطلب من أفراد شعبه هو أن يصبغوا أبواب بيوتهم بالدم حتى لا يهلكهم مع أعدائهم المصريين عن طريق الخطأ (خروج ١٢ : ١٣ - ١٤) ، أى أننا يمكننا القول أن اليهود القدامى كانوا يؤمنون بآله واحد ولكنهم لم يكونوا قط من الموحدين بالله (١) .

والآله حسب التصور اليهودى لم يكن حقيقة مطلقة تعلو على المادة ، بل هو فى الواقع امتداد لما هو نسبى ، وحتى بعد أن تحول هذا الاله النسبى الى آله العالمين ، نجد أنه يظل بالدرجة الأولى آله اسرائيل على وجه الخصوص ، بل أنه نظرا لعالميته لزداد أهمية شعبه . ومما لا مرأ فيه أن رؤية اليهود القومية الخالصة هذه قد عدلت فيما بعد وأصبحت أقل قبلية وبدائية ، ولكن على الصعيد الوجدانىبقى الاله اليهودى امتدادا لوعى الأمة اليهودية بنفسها ، ولم يحل التصور النظرى الجديد محل التصورات القبلية ، خاصة وأن اليهود ، حتى بعد أن أصبحوا من الموحدين ، احتفظوا بتصورات بدائية قبلية عديدة مثل مفهوم الشعب المختار كما أن شعائر الدين اليهودى تحتوى على تيار قوى للغاية يضى على تصور اليهودى للخالق ، رغم تحولاته وتبدلاته ، عنصرا قوميا محليا . والناقد الفاحص للفكر الصهيونى يلاحظ آثارا كثيرة لهذا الفهم الضيق لله ، فحاييم نحمن بياليك Hayyim Nahman Bialik (١٨٧٣ - ١٩٣٤) الشاعر الصهيونى ، الروسى الأصل ، يصف يوم الاحتفال بالجامعة العبرية بأنه « يوم عظيم ومقدس بالنسبة لآلهنا وشعبنا » (١٧٣) . وطريقة بياليك فى الإشارة للخالق تذكر

(١) اسمايل راجى الفاروقى ، اصول الصهيونية فى الدين اليهودى (القاهرة : معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٦٤/٦٣) ١٠٠ .

الإنسان بموقف اليهود القدامى الذين طالبوا أن تسمى كل أمة باسم الهة (٢٦٥) (وهي كلمات يقتبسها باستحسان كبير آرون دافيد غوردون Aaron David Gordon [١٨٥٦ - ١٩٢٢] الفيلسوف الصهيوني المتصوف) . ويؤكد مارتن بوبر Martin Buber (١٨٧٨ - ١٩٦٥) الفيلسوف الوجودي الصهيوني الألماني الأصل هذا الجانب من الإله اليهودي ، فهو إله يكن « حبا خاصا » لإسرائيل (وهذه عبارة يقتبسها بوبر من أقوال الأنبياء [١١١ : ١٨]) . كما أنه اعتبر اليهود « كنز الخالص من بين جميع الشعوب » (وهذه عبارة أخرى اقتبسها بوبر من سفر الخروج [١٩ : ٥]) (٣٣٧) .

وليس الإله اليهودي وحده هو الإله القومي بل أن كل المقدسات اليهودية تأخذ الطابع القومي . فالتوراة ليست كتابا روحيا يقرؤه ويعى محتواه الأخلاقي من يشاء بل هو كتاب الشعب اليهودي وحده ، وأرض الميعاد هي الأرض التي سيجتمع فيها الشعب المختار . وقد عمقت فكرة أرض الميعاد من قومية الإله اليهودي ، فهو لم يعد إله قوميا مرتبطا بشعب وحسب بل جعلت منه إله مرتبطا بمكان أيضا . والمسيح المنتظر الذي سيأتي بالخلاص لكل البشر في نهاية الزمان هو الآخر بطل قومي لأنه سيجمع اليهود المشتتين في الأرض التي سكوها ، كما أنه من نسل الأسرة المالكة اليهودية ، أسرة داود وسليمان .

ولكن إذا اكتسبت المقدسات طابعا قوميا فلا بد وأن تكتسب الظواهر القومية طابعا مقدسا ، وهذا هو ما حدث بالفعل ، فالتفكير اليهودي القديم والتفكير الصهيوني الحديث يشتركان في الإيمان بأن للشعب اليهودي بعض السمات الربانية المقدسة ، فالعبرانيون اكتسبوا اسمهم الديني الجديد بعد أن صارع يعقوب الملاك في حادثة غابضة لا يمكن فهم محلولها مثل معظم الأساطير اليهودية الأخرى . وقد سمي يعقوب « بإسرائيل » أي « بطل الله » بعد هذه الحادثة ، وأصبح العبرانيون « إسرائيليين » أي « أبطال الله » ، وبذا أصبح الشعب امتدادا لله في الأرض يخاطبه اليهود بكثير من عدم الكلفة : « لماذا تكون كإنسان قد تحير كجبار لا يستطيع أن يخلص ، وأنت في وسطنا يارب وقد دعينا باسمك لا تتركنا »

(أرميا ١٤ : ٩) . ان الله قد حل في الامة « وأصبحت اسرائيل مشبعة بروح الله ، بروح الاسم القدس » (٢٩٧) . وحلول هذه « المادة الالهية » في الشعب هو ما يميزه عن غيره من الشعوب الاولى (٣٠٠) كما يقول الحاخام الصهيوني ابراهام اسحاق كوك .

وينتج عن حلول الله في الامة ان افرادها يصبحون كهنة وقديسين وانبياء بل ومسحاء مخلصين (١) . فالشعب اليهودي يوصف في العهد القديم بأنه « خادم الله » « وكثر الله الغالي » وهذه اوصاف تستخدم لوصف الانبياء . كما ان الشعب مثل الانبياء مدين بوجوده لله الذي قاده سالما من ارض مصر وساعده على غزو ارض كنعان ، ولعل هذا يفسر ظاهرة تعدد الانبياء اليهود وتغلب التيار النبوي في الفكر الصهيوني . فبياليك يتحدث باعجاب ووله عن انبياء اليهود الذين « يحملون عاصفة روح الله في قلوبهم وزلازله ورعوده في أفواههم » ، انهم يعيشون خارج الوجود الانساني فقد حولوا « انظارهم الى الأزلية ، الى السموات والارض ، وكانوا في نهاية المطاف هم الذين أقاموا أسس الثقافات الدينية والأخلاقية في العالم » (١٧٩) .

وقد اصطفى الله الامة المقدسة دون العالمين وأصبحت اسرائيل بذلك أداته التي يستخدمها لخلاص العالم والنور الذي أرسله للأمم (اشعيا ٤٩ : ٧) . « ان اليهود كشعب يحاول كشف طبيعة الله للعالم ورفع رأس الانسان عاليا باسم الله من أجل تمجيد عظمته » (٢٩٦) كما يقول الحاخام كوك ، وهذا ولا شك سيؤثر على جميع البشر . أما بوبر فهو يؤكد ان اسرائيل قد اختيرت « لتتمكن من الارتفاع في تفكيرها ... عن القوة البيولوجية التي تمجدها الشعوب الى دائرة الحقيقة والاستقامة » (٣٣٨) . وينصح بوبر الامة اليهودية بأنه لا سبيل لاعادة بناء اسرائيل وتحقيق أمنها الا عن طريق ان يتحمل الشعب « عبء وضعه الخاص وعبء نير مملكة

(١) ميرجيليوس نيرم ، دائرة معارف الدين (نيويورك : فيلوسوفيكال لايراري ١٩٤٥) المقال الخاص « بالمسيح » ٤٨٥ .

الله « (٣٣٣) . وتدور معظم الطقوس والعادات اليهودية حول فكرة الاصطفاء هذه ، فعلى اليهودى أن يتوقف عن العمل يوم السبت لا ليسترىح بل ليميز عن الآخرين ، وعليه أن يمارس عادة الختان لا لأسباب صحية وإنما ليصبح مختلفا عن الآخرين ، وميثاق الله مع الشعب اليهودى هو الآخر وسيلة ليحتفظ الشعب بنقائه وصفائه ، وتنفيذ القانون اليهودى أن هو الا الطريق نحو الاحتفاظ بالتفرد .

ومعظم الطقوس اليهودية ، رغم أنها تكتسب طابع القداسة ، خالية من المحتوى الأخلاقى ، فبإضاعة بالقيم القومية القبلية . ونلاحظ هذه الملامح الأخلاقية أيضا فى فكرة الأرض التى وعد الله إبراهيم بها ، فالوعد لا يستند لى أساس أخلاقى لأن الأرض لم تعط لإبراهيم لورعه أو تقواه ولم تعط للشعب اليهودى لنشر القيم الأخلاقية ، بل أعطيت لهم وحسب باعتبارهم الشعب اليهودى المختار (١) ، وهذا سر صوفى لا يحتاج لى تبرير أخلاقى . ورغم محاولات بوهر وبعض المفكرين اليهود القدامى إضفاء طابع من الأخلاقية والانسانية على مثل هذه المفاهيم الا ان طابعها الغالب لا يزال لا أخلاقيا ، وليس من السهل أن يفتزع من الوجدان الصهيونى اليهودى أساطير أقدم من التاريخ ! (٢) .

ولعل الإيمان بارتباط ما هو قومى بما هو مقدس هو الموضوع أو «التيمة» الأساسى فى الفكر الصهيونى والخاصية الأساسية التى تميز بنيته (على عكس الفكر الاصلاحى الاستنارى الذى حاول أن يفصل القومى عن المقدس وأن يقدم مفهوما انسانيا وعالميا لليهودية مبينا بعدها التاريخى) . ويظهر هذا الارتباط بين الأمور القومية والدينية بشكل واضح فى كتابات الصهاينة الروحيين المتدينين ، فيحيل ميخائيل باينس Yehiel Michael Pines (١٨٤٢ - ١٩١٢) الكاتب البولندى الصهيونى يشير الى أن الشعب اليهودى لم يأت الى الوجود كجماعة مستقلة بطريقة عادية ، ولكنه جاء كجماعة بشرية

(١) نفس المرجع ١٤ - ١٧ .

(٢) انظر أيضا اليهودية .

لها ديانتها المستقلة ، مرتبطة بميثاق مشترك يقضى باتباع تعاليم هذه الديانة (٢٨٨) . ويؤكد بياليك أن الأمة اليهودية قد شكلت ليس « تراثها القومي ومؤسستها القومية الرئيسية ضمن حدود مملكة الروح » فالشعب قد « غرس أقدامه » وثبتها « خلال كل العصور في القرية الأزلية » (١٧٣) . ويقول الحاخام الصهيوني ، الألماني الأصل ، ماير بار ايلان Mayer Bar-Ilan (١٨٨٠ - ١٩٤٩) أن القانون اليهودي لم يكن قط ذا طبيعة علمانية ، « فالكنيسة » اليهودية لم تفقد الاهتمام بأمور الدولة ، كما أن الدولة لم تفقد الاهتمام « بالكنيسة » « لأن هذين المجالين ليسا منفصلين ضمن الحياة اليهودية » (٤٢٠) . ولذلك فاليهود — على حد قول باينس — يمتثلون القومية اليهودية العلمانية (٢٩٠) لأن « قوميتهم روحها التوراة وحياتها تعاليم التوراة ووصاياها » (٢٩١) . وهذه بطبيعة الحال قومية لا يمكن للجوييم فهمها « فغير اليهودي لا يتمكن من تقدير مفهوم التوراة بكل غحواه القومية لأنه لا يمكن التعبير عنه بشكل مرض بأية لغة أخرى » (١٧٤) (على حد قول بياليك) .

وإذا كنا من قبل قد بينا أن المقدسات اليهودية قومية وأن القومية اليهودية مقدسة ، فانتنا بعد هذا التحليل يمكننا أن نخطو خطوة للأمام ونقول أن المقدس هو القومي عند اليهود وأن القومي هو المقدس . هذا الخلط بين المطلق والنسبي يظهر بشكل صريح في كلمات بوبر التالية : « أن تعاليم الدين اليهودي أتت من سيناء فهي تعاليم موسى (التي تلقاها من ربه) . أما روح هذا الدين فهي أقدم من سيناء ، هي الروح التي جاءت الى سيناء فتسلمت هناك ماقتسمته من شرائع . هي روح يعقوب و « يعقوب » هنا ترمز الى « اسرائيل » أي الشعب اليهودي نفسه » (١) . أن الشعب الاسرائيلي تلقى وحيا دينيا في سيناء ولكن روح هذا الدين هي روح قوميته . أن الوحي الذي تلقاه موسى من الرب لا يختلف عن روح الشعب القومية ، أي أنه مثلما اختار الرب الشعب اختار الشعب الرب ، وحينما استمع الشعب لصوت الوحي فإنه لم يسمع سوى

(١) اصول الصهيونية ٤ .

صوته المقدس وحده . ولنتظر الآن للطقوس الدينية اليهودية المختلفة في ضوء فهمنا لظاهرة التمازج بين المقدس والقومى : الختان أمر مقدس لأنه مرتبط بالميثاق ، ولكنه في الوقت ذاته قومى لأنه عن طريقه سيتمكن اليهودى من الحفاظ على هويته . والقانون اليهودى مقدس لأنه مرسل من الله ولكنه قومى لأنه سيساعد اليهود على التميز . والمسيح المنتظر مرسل من الله ، ولكنه قومى لأنه سيقود الشعب اليهودى للخلاص . وأرض الميعاد مقدسة ، ولكنها هي الأرض التى سيمستوطن فيها الشعب . ونفس الظاهرة تتضح فى أبطال اليهود ، فموسى هو النبى ولكنه أيضا قائد الجيش القومى ، وكهنة موسى مقدسون ولكنهم أيضا غزاة عنصريون لا يرحمون ، والملوك الغزاة الغزلون أمثال سليمان يدخلون فى حوار مع الرب ويصلون الى مصاف الأنبياء . وقد لخص الحاخام الصهيونى كوك هذا الوضع الفريد بقوله : « أن كل ممتلكات اسرائيل القومية ، العزيزة على قلوب اليهود — الأرض واللغة والتاريخ والعادات — أن هي الا اوعية لروح الرب » (٣٠٤) .

وفكرة التشابه والتجانس بين الرب والشعب هي أساس فلسفة بوبر الوجودية الصهيونية ، فهو يعتبر الايمان الدينى بمثابة حوار دائم بين الانسان والله ، يدخل الانسان فى علاقة أو حوار مع « الأنت » (ذات حية وفعالة أخرى) وليس مع « الهو » (موضوع ميت مغلق على نفسه) ، بمعنى أن الله يصبح حقيقة شبه ذاتية يمكن للذات البشرية الاحاطة بها ، وليس حقيقة مثالية تحاول الذات الانسانية الوصول اليها (١) . وبوبر يلغى وجود الذات اليهودية الفردية لأن اليهودى لا وجود له الا كعضو فى مجموعة ، والحوار لا يتم الا بين الخالق والشعب ككل وليس بين الخالق واليهودى كهرد . وهكذا حسب التصور اليهودى القديم والصهيونى الحديث يذوب الله فى الشعب ويذوب الشعب فى الله مكونين كلا واحدا غير متمايز . لقد حل المطلق فى النسبى حلولا كاملا ، كما ابتلع النسبى المطلق ابتلاعا كاملا ، ولذلك يمكن لليهودى أن يعى الله بأن يعى المطلق

(١) مارفن مالفرسون ، مرشد الى اللاهوت المسيحى (نيويورك : ميريديان بوكس ١٩٦٠) ١٧٢ — ١٧٦ .

نفسه ، أو كما يقول الحاخام كوك : « ان روح اسرائيل وروح الله هما شيء واحد » (٣٠٤) ، وكما يقول الحاخام المحافظ شختر : « عندما وجدت اسرائيل نفسها وجدت الهها ، وعندما أضاعت اسرائيل نفسها أو عندما بدأت تعمل لحو نفسها ، كان من المؤكد أنها سوف تنكر الهها » (٣٧٨) .

ويمكن القول أننا اقتبسنا آتفا من كتابات بعض الصهاينة المتدينين أمثال كوك ، أو المتصوفين أمثال بوبر أو الروحانيين أمثال بيباليك . ولكن أى نظرة — ولو عابرة — يلقونها المرء على الكتابات الصهيونية تقنعه بأن العلمانيين احتفظوا ببنية أسطورة الأمة المقدسة بعد أن صاغوها صياغة « علمانية » ، فاستحدثوا مفهوم « أمة الروح » القائل بأن القومية اليهودية لا تستند الى أى أساس مادي معروف وإنما تستند الى التراث اليهودي والروح اليهودية ، وأنها أمة ذات رسالة خاصة . وقد يختلف محتوى الأسطورة العلمانية عن الأسطورة الدينية إلا أن البنية متماثلة . وقد دافع هرتزل العلماني الليبرالي الغربي عن مفهوم أمة الروح ، وشاركه في ذلك بن جوريون « الاشتراكي الديمقراطي » ، بل أن دوف بير بوروشوف Dov Ber Boroshov (١٨٨١ — ١٩١٧) المادي الجدلي الصهيوني هو الآخر قائل بفكرة الأمة التي لها وضع متميز عن وضع كافة الأمم . ولا يزال الصهاينة ينظرون الى اسرائيل على أنها رائدة بعث روحى عالمى هائل ، وهم في هذا لا ينظرون الى اسرائيل الحقيقة ، اسرائيل النابالم والتوسع والارهاب ، بل الى اسرائيل دولة الشعب المختار ..

بل أن فكرة أمة الانبياء والكهنة والمسحاء المخلصين لا تزال تجد بعض الصدى بين المفكرين « العلمانيين » الصهيوتيين ، فبن جوريون الاشتراكي الروحي كثيرا ما يتحدث عن اليهودي العادي على أنه نبي وشهيد بل ومسيح مصلوب . كما يؤكد نحنن ميركين « الاشتراكي » أن استشهاد اليهودي « قد رفعه الى مستوى خادم (البشرية) البائس ... ومن تاج آلامه أرسل ... شعاعا للعالم الذي يلغنه ... وفي رقة مشاعره التي ولدها الألم يصل الى ربه من أجل الجنس البشرى الذي نبذه » (٢١٩) . أما ليلينبلوم العلماني فيقول ان كل اليهود « مقدسون سواء كانوا غير متدينين أم

أرثوذكسيين » (٧١) . ويشير أحد المؤلفين اليهود الصهاينة الى بن جوريون على أنه النبي المدجج بالسلاح ، كما يشير لساختمان المؤرخ الصهيوني الى جابوتنسكى على أنه نبي ومحارب .

وإذا كان الاسرائيلى العادى لا يرى نفسه على أنه نبي ومسيح مخلص كما يدعى بن جوريون الا أنه لا يزال يرى روح القداسة تسرى فى ممتلكاته القومية ، فالوجدان الاسرائيلى يخلع صفة القداسة على أشياء وظواهر يعتبرها معظم الناس (متخلفين كانوا أم متحضرين) ظواهر نسبية تاريخية . فانتصارات الجيش الاسرائيلى وحركة الكيبوتزات وبن جوريون تحيطهم هالة صوفية ، بل أن بطاقة الهوية الاسرائيلية تحيطها هى الأخرى هالة من القداسة (وهذا يفسر الغضب « القومى » الذى سببه تمزيق شالوم كوهين عضو الكنيست لبطاقة هويته) . وأكثر الأشياء قداسة لا يزال كما هو الحال فى الماضى ، أرض الميعاد . وقد عبر ديان عن هذا الموقف تعبيرا دقيقا حينما أشار الى أرض اسرائيل على أنها « هى ربه الوحيد » . فالتقديس هنا ليس مثل التقديس المجازى الذى يمارسه أى مواطن نحو وطنه وشعبه ، بل هو تقديس حرفى من نوع فريد لا يمكن فهمه الا بالعودة للمفاهيم اليهودية القديمة التى تخيب الله فى الشعب والأرض وتذيب الشعب والأرض فى الله .

٣ - وحدة الوجود اليهودية

وحلول الله فى الأمة المقدسة والأرض المقدسة هو ولاشك ضرب من وحدة الوجود أو البانثيزم Pantheism . والمؤمن بوحدة الوجود فى صورتها المتطرفة يتخذ ، عن وعى أو عن غير وعى ، موقفا معاديا من الإنسان والتاريخ والوعى والثورة . فحينما يحل الله فى الأرض أو فى تاريخ الأمة وعندما يبلغ الحلول ذروته فيصبح الله هو الأرض والأمة (وهذا هو ثالث وحدة الوجود : الله والإنسان والطبيعة) فإن المطلق يحل فى النسبى ويمتزجان ، وينجم عن هذا أن يفقد المطلق سموه ووجوده كمثل أعلى ، كما يفقد النسبى حدوده وكيانه . والإيمان بالمثل الأعلى لا يتركز على التمسك بالواقع ولا يطور دياكتيكى يتخطى الحركة الميكانيكية التى تكرر نفسها ، ويتعدى

التوازي والتقابل والتعادل. فالمثل الأعلى هو ما يدفع الإنسان نحو محاولة تخطي واقعته المادية وتخطي حدود ذاته لتحقيق وجود أعلى وأفضل، وهو بهذا يتخطى البيئة والطبيعة وكل الأشياء ليعلى ذاته الإنسانية دون أن يذيقها فيما هو خارجي عنها أو أعلى منها . ان أى فلسفة إنسانية هيومانية لابد وأن تؤمن بمقدرة الإنسان على التسامى (ولعل هذا هو ما عناه ماركس حينما أشار الى ان الماركسية هي الترجمة المادية العلمانية للأساس الروحي والاخلاقي للمسيحية) . والإيمان « بمقدرة الإنسان على التسامى » هو في واقع الأمر إيمان بأن الإنسان ليس جسدا محضا أو كما ميكانيكيا غير قادر على ترويض الطبيعة وتصنيفها ، كما أنه يعنى أن وعى الإنسان « الذاتى » الخلاق يميزه عن بيئته « الموضوعية » ، وأن عقله غير مساو لجسده والا لحقق نوعا من التوازن يقضى على أى حركة وتقدم . أما فلسفة وحدة الوجود اليهودية فهى تساوى الإنسان اليهودى بالأرض التى يعيش عليها ، بل وتجعل الأرض هى المحور والمحرك الأساسى لحياته وتاريخه . كما انها تنيب وجوده ووعيه الفرديين فى الذات القومية العليا ، وهى بذلك تحطم كل حدود وجوده التاريخى النسبى المحسوس الذى يميزه ككائن فردى له خصوصيته ، وتحتل محله الوجود الجماعى للشعب المقدس ، وهو وجود مطلق غير محدد أو معين أو متنوع ، ليس فيه تدرج ولا يمكن تصنيفه أو تسميته . ان فلسفة وحدة الوجود اليهودية تنيب اليهودى الفرد فى الأمة اليهودية والأرض اليهودية ، ثم تخلع القداسة على هذه الأشياء (وهذه هى الوثنية بعينها) .

ولكن وحدة الوجود اليهودية (الصهيونية) تأخذ صورة غير واضحة أو ظاهرة ، فوحدة الوجود التقليدية التى تسود بين الشعوب الوثنية أو البدائية ترى ان القوة المقدسة العليا تحل فى العناصر الطبيعية المحيطة بها مثل الشمس أو الأرض أو حتى التماثيل التى ترمز لها . أما داخل اطار وحدة الوجود اليهودية فإن المطلق أو المقدس يحل فى شئ غير ملموس هو الأمة اليهودية ذاتها : التاريخ والشعب والدولة ، وحلول المطلق فى أشياء غير ظاهرة يزيد من هلاميته ولا تحدده وسيطرته . ولعل وحدة الوجود اليهودية قد أخذت هذا الشكل لأن اليهود كانوا شغبا متنقلا مما اضطرهم الى فصل القداسة عن العناصر الطبيعية الأرضية

الثابتة ، ولكنهم جعلوها تحل في الشيء الوحيد الدائم معهم : الأمة اليهودية وتاريخها . ومما عمق هذا الاتجاه أن الدولة اليهودية لم تعمر طويلا ، وأن اليهود استمروا في التجول الجسدي والعاطفي طيلة تاريخهم ، ولذلك فقد استمرت مقدساتهم في الارتباط بوجودهم هم أنفسهم ، وانفصلت عن أي وثن خارجي عن أنفسهم . أي أن الوثن اليهودي القديم (والصهيوني الحديث) هو الذات اليهودية القومية ، والذات القومية وثن لأنها مطلق بعلو على الوجود الفردي ويلغيه بكل جدة وضراوة . ولهذا قد يمكننا القول أن عداوة العبرانيين لعناصر الطبيعة لم تكن ضربا من الانسانية أو التقدم ، وإنما هي نوع من عبادة الذات أو الوثنية القومية التي لا تختلف كثيرا في بنيتها عن الوثنية الطبيعية التي كانت سائدة في الشرق الأوسط قبل ظهور الأديان السماوية أو عن عبادة الأسلاف أو الأسرة المسالكة التي لا تزال سائدة في بعض بلاد آسيا . (ولكن لابد وأن نشير إلى أن تقديس أرض الميعاد يدل على وجود آثار ظاهرة من وحدة الوجود الطبيعية في اليهودية) .

واكتشافنا لهذه البانثيزم يفسر كثيرا من سمات رؤية اليهود لأنفسهم كبشر ولعلاقتهم بالعالم . فهم مثلا يضعون أنفسهم في مقابل الجويم لأن الجويم لا يشاركونهم قداستهم ولا يدورون معهم داخل الدائرة اليهودية المقدسة ولا يحملون نير مملكة السماء . ووحدة الوجود تفسر هذا الاهتمام اليهودي والصهيوني بكل ما هو يهودي بغض النظر عن قيمته الانسانية أو الأخلاقية . كما أنها تعطينا مفتاحا لفهم هذا الترابط الشديد الذي يسم حياة اليهود أينما وجدوا ، وكذا انتشار النزعات النبوية المسيحية بينهم (وهذا بدوره قد يساعدنا في تفسير ظاهرة وجود عدد كبير من الثوريين بين اليهود) . ووحدة الوجود قد تعطينا تعليلا جديدا لما يسمى « بالتسامح » اليهودي تجاه الديانات الأخرى ، فاليهود ليس عندهم أية نزعات تبشيرية ، وقد فسر هذا على أنه ضرب من التسامح ورحابة الرؤية ، بينما تفسر النزعة التبشيرية عند المسلمين والمسيحيين على أنها ضرب من التعصب وضيق الأفق . ولكن التسامح اليهودي هو امتداد للإيمان بقداسة الأمة اليهودية التي يحل فيها الله ، وهذه قداسة موروثة وحتمية لا يملك اليهودي

قبولها أو رفضها ، اذ انها جزء من كيانه ، ولذلك فليس في مقدوره نقلها للآخرين ، فتسامحه هو في الواقع تعبير عن عدم اكترائه بالآخرين وعن احساسه باختلافه وتميزه وأحيانا تفوقه عليهم . أما « النزعة » التبشيرية الاسلامية والمسيحية ، بغض النظر عن موقفنا منها وعن نتائجها العملية ، فهي نابغة من الايمان بأن كل الناس في امكانهم الوصول الى الخلاص عن طريق الايمان بالله وعن طريق تنفيذ تعاليمه وقوانينه المرسله (على عكس القانون اليهودي الذي لم يرسل الا الى اليهود وحدهم كجماعة قومية) . ولكن يجب ان نذكر ان هذا « التسامح » يتلشى وعدم الاكتراث يختفى والتمركز على الذات القومية المقدسة يأخذ شكلا عدوانيا ضاريا عند ما يحاول الفلسطينيون الاستمرار في وجودهم التاريخي النسبي داخل ارض الميعاد المقدسة وعندما يمتلك الأنبياء المقدسون طائرات الفانتوم (المقدسة أم النسبية ؟) .

وغنى عن الذكر ان ظروف اليهود الاقتصادية والحضارية في الجتو (واسرائيل فيما بعد) هي التي أفرزت ثم عمقت هذه النزعة البائنية وهي التي سمحت لها بالاستمرار . وأكبر دليل على ذلك انه أثناء حركة الهسكلاه في أوروبا ظهر الفكر اليهودي الاصلاحى الذى حاول ان ينسلخ الى حد ما عن وحدة الوجود اليهودية . وفي داخل اسرائيل ذاتها نجد أنه حينما يزداد ضغط الواقع على الاسرائيليين ، كأن يصعد الفدائيون عملياتهم وينجحوا في انجاز بعضها ، ينحسر الوعي الزائف وتبدأ بعض الأصوات « العاقلة » في التحدث عن حقوق الفلسطينيين ، أى أن دائرة وحدة الوجود اليهودية تفتتح قليلا وتعترف بعض الشيء بالواقع الخارجى النسبى اذا ما أثبت هذا الواقع وجوده وفعاليته .

٤ — حلول الله في التاريخ

التصور اليهودي القديم والصهيونى الحديث اذن يرى أن الانسان اليهودي ينتهى الى شعب مقدس يحل الله فيه وفي أرضه ، ولكن ماذا عن وجوده الفعلى والمحدد داخل التاريخ والزمان ؟

الشعب المقدس لا يخضع بأية حال للمقاييس العادية ، فحياته هي تعبير خالص عن ارادة الله . وهذا التصور يختلف الى حد كبير عن التصور الاسلامي والمسيحي لحياة الانسان وتاريخه الذي يرى ان الله قد ترك الانسان حرا في التاريخ ليحقق ارادته الانسانية ، ولكنه في الوقت ذاته لم يهجره كلية ولم يتركه يفرق في النسبي . اخبر الله الانسان انه سيثيبه ويعاقبه في اليوم الآخر « خارج التاريخ » والزمان الانساني كلية ، ولذلك فالانسان حر في داخل التاريخ . ولكن الله طالبه باتباع القيم الاخلاقية وارسل له الكتب السماوية ولذلك فالانسان ليس ضائعا يدور في حلقات مفرغة .

« اعمل لدنياك كأنك تعيش [في التاريخ النسبي] أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت [وتواجه المطلق] غدا » ، هذه دعوة للانسان الا تستغرقه الاشياء النسبية والعادية والواقعية وأن يحاول تخطيها والتسامي عليها ، ولكنها في الوقت نفسه تأكيد لحق الانسان في أن يعيش داخل التاريخ حرا ليحقق لنفسه أكبر قسط من السعادة . يقف الانسان قدماه مغروستان في الأرض وعيونه شاخصة للسماء ، وهذا هو سر عظمة الانسان ومأساته ، وهذا أيضا هو سر وجوده الانساني المركب . هذا الصراع صفي الى حد كبير في التراث اليهودي ، فحياة اليهودي لا تتميز بهذا التوتر لأنه ليس الا جزءا من كل قومي مقدس لا وجود تاريخي له ، اذ أن التاريخ اليهودي تاريخ لا جدل فيه ولذا فهو ليس بتاريخ حقيقي ، فانه اسرائيل — كما بينا — لم يعلن عن نفسه في قوى الطبيعة وانما في التاريخ وفي التاريخ اليهودي على وجه الخصوص .

وسفر الخروج يقدم تصورا للتاريخ يتدخل الله فيه من آونة لآخرى ، والامة ذاتها لم تأت للوجود من خلال تطور تاريخي بل من خلال ارادة الله ، وبذا تصبح اسرائيل امة ومجتمعا دينيا في الوقت ذاته (٣٣٦) كما يقول بوير ، وهي لا تزال حتى وقتنا هذا شعبا ومجتمعا دينيا (قومية — مقدسة) . ويفرق بوير بين التاريخ (التجربة التي تعيشها الامم على حد قوله) والوحي (وهو التجارب الهامة الخالصة التي يعيشها الأفراد) ، وهو يرى انه حينما يتحول الوحي الى افكار تفهمها الجماهير وتؤمن بها فانها تصبح عقائد . ولكن هذا هو الوضع بالنسبة لساير الامم ، لما بالنسبة لاسرائيل فالامر مختلف اذ انه ثمة تطابق كامل بين الوحي والعقيدة

والتاريخ : « ان اسرائيل تتلقى تجربتها الدينية الحليمة كشعب ،
ئيس النبي وحده هو الذى تشمله عملية الوحي بل المجتمع ككل ،
فمجتمع اسرائيل يعيش التاريخ والوحي كظاهرة واحدة ، التاريخ
كوحي ، والوحي كتاريخ » (٣٣١) . (النسبى كمطلق والمطلق
كنسبى ، المقدس كقومى والقومى كمقدس ، الذات كموضوع
والموضوع كذات ، وكلها تندمج فى دائرة « الواحد » المطلق) .
ان حلول الروح الالهية فى اليهود حولهم الى انبياء ، كما حول
التاريخ اليهودى الى وحي مستمر ، ولذا فاليهود حسب تصور
بوبر الصوفى « أمة تحمل وحيًا [الهيا] » (٣٣٦) عبر تاريخها
المقدس ، الذى لم يكن سوى « صراع لا ينتهى من أجل وضع مثل
الانبياء موضع التطبيق » (٢١٧) كما يقول سيركين الاشتراكي !

وماذا عن وجود اليهود الحقيقي التاريخى ، بل وفى مكان مثل
النجو ؟ هذا الوجود يصبح كيانا « مؤقتا واصطناعيا » (على حد
قول احاد همام) يحفظ الله فيه الامة وروحها الى ان يحين الوقت الذى
« يشاء فيه اعادة شعبه الى ارضه وحرية » (١٥١) . ان
الوجود التاريخى البائس هو مجرد الجسد الذى تحل فيه الروح
للتعبير المؤقت عن نفسها .

يصبح التاريخ اليهودى انن هو النقطة التى يلتقى فيها الخالق
مع الشعب ، ويرى بعض فلاسفة التاريخ ان اليهود هم اول من
اكتشف فكرة التطور التى هى عماد الوعى التاريخى (على عكس
الاغريق القدامى الذين كانوا يرون التاريخ بشكل فلسفى هندسى) ،
كما انهم يقولون ان حلول الله اليهودى فى التاريخ قد حوله الى خط
مستقيم يتحرك نحو هدف اعلى وليس شكلا دائريا هندسيا يتحرك
دون غاية . ولكن هل انطوى التصور اليهودى للتاريخ على فكرة
التقدم بالفعل ، ام انه تصور ديالكتيكى زائف يعطى احساسا
بحركة زائفة تخفى جمود وسكون المطلقات ؟ كل الظواهر التاريخية
حسب التصور اليهودى قد قررت حركتها حسب خطة ربانية مسبقة
وضعت قبل بدء التاريخ ، بل ان تدخل الله المستمر والعلنى هو
تأكيد بأن التاريخ يدفع من الخارج وانه لا مجال للارادة البشرية
فيه . ان التاريخ اليهودى بدأ من مطلق لا يقبل النقاش او التقييم

(الميثاق مع ابراهيم) يقطعه المطلق من آونة لأخرى (الميثاق مع اسحاق ثم يعقوب) وينتهي بمطلق : ظهور المسيح المنتظر أو العصر المسيحاني (حسب الرواية العلمانية التقديمية) . وتدخل الله المستمر في التاريخ هو ما يكسبه معنى ويضفى على فوضائه اللامتناهية شكلا : « ان يد الله ثم تقد هذا الشعب خلال أربعة آلاف عام وعبر الأم الجحيم ، ولم تحضره مرة أخرى الى أرضه للمرة الثالثة (في العصر الحديث) دون أى معنى » (١٨٠) كما يقول بيبليك .

ومسار اتاريخ بهذا المعنى يصبح له هدف واضح ، ويتجسد هذا الهدف في فكرة المسيح المنتظر الذي هو نهاية التاريخ . ان تقاليد الايمان بالخلاص تؤكد « وجود النور الروحاني الذي يمكن اليهودي من أن يفهم نفسه ويدرك معنى جميع أحداث تاريخه حتى الجيل الأخير الذي ينتظر الخلاص والذي بات في متناول يده » (٢٠٥) . ان مسار التاريخ يصبح واضحا ، له بدايته ونهايته ، تماما مثل أى مسرحية بل وأى ميلودراما ، لان الاختيار أخيار والأشرار في منتهى الشر ، كما أنه يشبه أى ميلودراما لها نهاية سعيدة . أن « موسى وايليا هما جزء من عملية الخلاص هذه ، أحدهما يمثل بدايتها والآخر قمتها ، ولذلك فكلهما يحقق هدفها » (٢٠٠) . وأسطورة المسيح المنتظر قد تخطوى على فكرة التقدم نحو هدف أعلى الا أنها على الرغم من ذلك لا تاريخية لأنها تفترض أولا ثبات النقطة التي يتحرك نحوها التاريخ ، ولأنها تفترض ثانيا عدم جدوى الإرادة الإنسانية ، اذ أن العصر المسيحاني سيأتي عن طريق تدخل الله . ان فكرة التقدم والتغير والتبدل ، التي هي عماد التاريخ والوعي التاريخي ، تستند الى فكرة النمو التدريجي للوعي الانساني المستقل الحر عن طريق التجريب والمحاولة الواعيين وعن طريق الخطأ والنجاح ، وكلما نما هذا الوعي كلما ازداد نجاح الانسان وكلما ازداد تحرره من الطبيعة ومن قانون الضرورة وتحكم فيهما . ولذلك يكون الهدف المسيحاني الذي يتسم بالثبات (رغم كل نبئه وسموه) والذي يلغى الوعي الانساني (رغم كل الفوائد الجمة التي قد تعود علينا من ذلك) هدفا هو في صميمه

معاد لفكرة التقدم ، لأن الانسان التاريخى انسان حر وواع متطور
يبدل ويحور فى هدفه بمقدار زيادة نموه وبمقدار نجاحه وفشله
وحسبما تمليه عليه ظروفه المحسوسة (١) .

نعم ! ان فكرة المسيح المخلص قد تعطى التاريخ اليهودى معنى ،
ولكنه معنى مقدس يلقى أى وجود نسبى له كما يلقى تنوعه
وصراعاته ، لأن التاريخ يتحرك دائما وأبدا مدفوعا من الخارج
نحو نقطة ثابتة هى النهاية التى لا يكون بعدها أى تطور . ان
التاريخ يتقدم نحو « نهاية سعيدة » مقررة ومحسوبة ، وبذا
يصبح التاريخ خاليا من امكانيات الانتصار والهزيمة ، فالانتصار
هو انتصار اليد المحركة لما الهزيمة فهى دائما مؤقتة ، ولهذا السبب
لا تسمع اسرائيل سوى « لحن الخلاص » ولا تصفى الا الى
« تموجات أعمالها التى ستنتهى فقط بقوم أيام المسيح المنتظر »
(٣٠٠) . فالخلاص متواصل ، والخلاص من مصر (فى أول
الأيام) والخلاص النهائى (فى آخرها) هما جزء من عملية واحدة
تقوم بها « اليد القوية والذراع المحدودة » انها عملية بدأت فى
مصر ولا تزال واضحة فى التاريخ كله . ان التاريخ اليهودى
يصبح تاريخ مثاليات وكائنات ميكانيكية مقدسة متحركة ، انه ليس
تاريخا لبشر محسوسين يعيشون فى فرح وحزن معرضين للنصر
والهزيمة .

ولعل هذا يفسر التناقض الواضح فى التصور اليهودى للخالق ،
فهو اله قومى شخصى ، الا أنه فى الوقت ذاته اله رهيب يرهق
عباده ويحرمهم حريتهم الانسانية ، ولذلك فذكر اسمه أو حتى
كتابته شئ مجرم . ولا يزال بعض اليهود الأرثوذكس يحرمون كتابة
اسم الله وحينما يريدون الإشارة له فانهم يكتبون رمزا جبريا خاليا
من أى إحياءات مثل علامة x أو شرطة — . ان الرمز الجبرى هو
وحده قادر على الإشارة الى المطلق الذى يعطو على الانسان ويلقى
ارادته كلية .

(١) غيرجىليوس نيرم (محرر) دائرة معارف الدين المثل المنون « التقدم »

وماذا عن تاريخ الجويميم ؟ هل يتسم تاريخهم بالتنوع والتناقض ؟ نعم ولكن هذا التنوع وذلك الصراع غير مهمين لليهود ، بل انهما غير حقيقيين في نهاية الامر . فالتاريخ الانساني كله يدور حول الأمة اليهودية التي تقف في وسطه تجسد فكرة الله ، « انها حجر الزاوية في حركة التاريخ نحو الخلاص » (٣٣٣) كما يقول بوبر . وكما ان وجود المسيح المنتظر اساسي لاضفاء معنى على التاريخ اليهودي ، فوجود اليهود (أمة المسحاء المخلصين) داخل التاريخ الانساني اساسي لاضفاء معنى عليه هو الآخر . « ان تأمين نظام العالم الذي يترشح بين عواصف الحروب الدموية » حسب تصور الحاخام كوك يتطلب بناء الدولة اليهودية ، هذا « وبناء كيان الشعب واظهار روحه هما عملية واحدة لا يمكن الاستغناء عنها لاعادة بناء العالم المهتز الذي ينتظر القوة العليا والموحدة الموجودة في تجمع اسرائيل المقدس » (٢٩٧) . الأرض تميد والدنيا تهتز والقوضى تعم لأن الأمة المقدسة ليست في مركز التاريخ . وهس العلماني له رأى مماثل شرحه في كتابه **روما والقيس** (٣١ - ٣٢) ، فهو يرى أن تاريخ الانسانية أصبح مقدسا من خلال اليهود واليهودية ، لأنه أصبح « تطورا عضويا وموحداً يعود في أصله الى حب الأسرة » (٣١) . بل ان سيركين الاشتراكي يرى « أن الانتحار القومي اليهودي يشكل مأساة رهيبة لليهود انفسهم ، كما ستكون الحقبة التي تقع فيها هذه الواقعة أفجع ما سيعرفه تاريخ البشرية » لأن القضاء على اليهود لا يعنى سوى القضاء على البشرية » (٢٢٨) .

تقف الأمة برسالتها الأتلية الثابتة في مركز التاريخ متخطية كل حدوده ومجسدة المثل العليا الريفانية ، ومرة أخرى يستمد التاريخ معناه من وجود المطلق المستقل المنفلق على نفسه في مركزه أو في نهايته ، ومرة أخرى نعود للدائرة المغلقة التي لا علاقة لها بأى تاريخ محسوس أو واقع حى .

ومما يجدر ذكره ان الدائرة اليهودية المغلقة ليست روحية وتاريخية فحسب بل وجغرافية أيضا ، فاله اليهود القومي مرتبط بالشعب وبالأرض الفلسطينية ، والفكر اليهودي الصهيونى يدور حول أرض الميعاد التي يجب ان يعود لها الشعب الذى هو « حجر

زاوية الخلاص » . بل ان التصور اليهودي القديم يعطى أرض الميعاد بالنسبة لبقية العالم مكانة تشبه مكانة اليهود بالنسبة لتاريخ العالم ومكانة المسيح المخلص بالنسبة لتاريخ اليهود . فأرض الميعاد حسب التصور اليهودي هى مركز الدنيا لأنها توجد فى مركز العالم ، وأورشليم تقع فى وسط أرض الميعاد ، والهيكل يقع وسط أورشليم ، وقديس الأقداس فى وسط الهيكل ، وثابوت العهد فى وسط قديس الأقداس ، وحجر الأساس أمام ثابوت العهد ، وهذه النقطة هى مركز العالم ، أنها المسيح المنتظر الجغرافى ان صح التعبير (١) . ان اليهود ليسوا مقدسين فحسب بل أنهم يقفون كالدائرة المعلقة على نفسها وسط التاريخ والجغرافيا !

وقد يحق للقارئ ان يتساءل الآن عن علاقة اسرائيل بهذا الموقف من التاريخ ، وكيف يمكن القول بأن دولة اسرائيل تقف « ضد التاريخ » أو خارجه رغم أنها حقيقة واقعة (بغض النظر عن موقفنا الأخلاقى أو السيكولوجى منها) . ان وجود اسرائيل أمر ولا شك فيه ، ولكننا مع ذلك لا بد وأن نميز بين « الأمر الواقع » و « الواقع التاريخى » ، « فالأمر الواقع » ليس بالضرورة ممثلاً للحركة العامة للتاريخ ، أما « الواقع التاريخى » فهو النقطة التى يلتقى فيها الحاضر بالماضى بالمستقبل . بهذا المعنى يمكن القول ان دول الصليبيين التى حكمت بعض أجزاء الشرق الأوسط ما يزيد عن مائة عام كانت تتمتع بوجود واقعى من الناحية الإمبريقية وحسب ، ولكنها لم تصبح أبدا جزءا عضويا من تاريخ المنطقة . فهذه الدول كانت تعبيرا عن ظواهر خاصة بالتاريخ الأوروبى فى ذلك الوقت ، ولتفسير ظاهرة دول الصليبيين يجد المؤرخ نفسه مضطرا لدراسة التاريخ الأوروبى فى العصور الوسطى ، فظهور هذه الدول الصليبية مرتبط بمسار هذا التاريخ . وبعد ذلك ظهر تاريخ الشرق الأوسط كعنصر مضاد يحاول أن يوقف مسار هذه الحركة الغربية عليه ويحاول أن يتطلع هذا الجسم الدخيل ، وقد نجح فى ذلك فى نهاية الأمر . ان الدول الصليبية كانت على علاقة عضوية بالتاريخ الأوروبى ، ميكانيكية بالتاريخ العربى .

(١) اليهودية ١٠ .

ودولتا روديسيا واتحاد جنوب افريقيا تصلحان كمثال لدولتين
لهما وجود امبريقي وحسب ، ولذا لا توصفان بأنهما « افريقيتان »
رغم وجودهما الفعلي في افريقيا ، ورغم ان احدهما هي أكثر الدول
تفوقا من الناحيتين الصناعية والعسكرية في القارة ، ومع ان
« تاريخ » اتحاد جنوب افريقيا يعود الى القرن الماضي إلا أن
اغلبية دول العالم ترفض الاعتراف به ، وترى أن ذلك مرهون بمدى
استعداد **المستوطنين البيض** « الأوروبيين » للتعامل مع الافريقيين
الذين يشكلون عماد « الواقع التاريخي » في المنطقة .

وإذا أردنا أن نضرب امثلة أخرى من العصر الحديث لوجدنا
أن **المستوطنين الفرنسيين** في الجزائر كانوا يتمتعون بوجود امبريقي
ميكانيكي لم يقدر له أن يصبح وجودا عضويا تاريخيا . فاستيطان
بعض الفرنسيين في الجزائر كان مرتبطا بنمو الرأسمالية الفرنسية
في مرحلة معينة من تاريخها ، كما كان مرتبطا برغبتها في السيطرة
على السوق الجزائري والافريقي سيطرة كاملة . وقد ظل المستوطنون
مرتبطين ارتباطا عضويا بالمصالح الامبريالية الفرنسية ، ولذلك
لم يضربوا جذورا في الوطن الجديد ، بل وقفوا ضد مسار التاريخ
وجعله ، وهو التاريخ الذي دحرهم وابتلعهم في نهاية الأمر مثلما
دحر وابتلع الصليبيين من قبل . وقد تم هذا بسبب مقاومة
الجزائريين العرب الذين اضطروا الرأسمالية الفرنسية الى تغيير
استراتيجيتها والى تبني موقف جديد أدى الى تخليها عن
المستوطنين .

ومما له دلالة أن بن جوريون الصهيوني اقترح على الجنرال
ديجول انشاء دولة استيطانية على ساحل الجزائر تضم كل
المستوطنين الفرنسيين ، على أن يقطن العرب الصحراء الواسعة !
ولكن ديجول بثاقب بصيرته التاريخية رفض أن يفشي « اسرائيل
أخرى » (على حد قوله) ، على الرغم من أن « اسرائيل الفرنسية
في الجزائر » كان من الايسر تشييدها من الناحية الامبريقية من
« اسرائيل الصهيونية في فلسطين » ، لأن المستوطنين كانوا هناك
بالفعل على مقربة من الوطن الأم ! ولكن ديجول مع ذلك رفض
الحل « الصهيوني » للمشكلة لأنه حل مبني على خلق حقائق

[امبريقية] جديدة (على حد قول ديان) وعلى تجاهل كامل للواقع التاريخي ومساره (وهذه هي الترجمة الفعلية للجانب الذى شخصناه من قبل فى الرؤية الصهيونية : علمية السلوك اليومي ، غيبية الرؤية العامة) .

فى ضوء كل هذه الملاحظات يمكننا أن نعتبر اسرائيل حتى هذه اللحظة مجرد واقع امبريقى وحسب ، فهي دولة انتجت ظروف اليهود الاقتصادية والحضارية فى أوروبا ، ثم نمت وترعرعت تحت رعاية الامبريالية العالمية التى لها مصالح فى المنطقة . وهي رغم وجودها الفعلى فى منطقة الشرق الاوسط الا انها الى حد كبير لا تزال امتدادا عضويا لتناقضات ومصالح الامبريالية العالمية فى المنطقة ، ولهذا السبب يهتم الاسرائيليون بعلاقتهم بأوروبا وأمريكا أكثر من اهتمامهم بعلاقتهم بجزائرهم الآسيويين (على حد قول بن جوريون) . وحتى بعد أن بدأت اسرائيل فى تحقيق بعض الاستقلال عن الامبريالية العالمية نجدها مع ذلك مصرة على الحفاظ على وجودها الميكانيكى (وهي فى هذا تشبه روميسيا فى بعض الوجوه ، التى ضعفت صلتها بانجلترا ، ومع ذلك لم يطرأ أى تحسن على علاقة المستوطنين البيض بسكان البلاد الافريقيين) .

ان وجود اسرائيل فى المنطقة وجود ميكانيكى شأنه فى ذلك شأن أى جيش أو « جيب » استعماري أتى من الخارج ليخدم مصالح الاستعماريين فيضطر السكان أصحاب الحضارة والتاريخ المحليين أن يدافعوا عن أنفسهم فى مواجهة هذا التحدى . قد يتعلم السكان المحليون الكثير من هذا الجيش ، وقد يغيرون من نمط حياتهم ومسار تاريخهم ، كما فعل العرب بعد الغزو الأوروبى ، ولكن وجوده مع ذلك يظل وجودا ميكانيكيا .

والوجود الاسرائيلى الميكانيكى ، الذى يشبه من بعض الوجوه الوجود اليهودى الجتوى ، هو الذى يفسر لم تجد التصورات الصهيونية اللاتاريخية فى اسرائيل تربة خصبة ترفع فيها . وهو وجود لم يتم عفويا أو نتيجة للصدفه العمياء وانما هو جزء من الخطة الصهيونية ، اذ أن الوجود الميكانيكى هو الوجود المنفصل الذى

عن طريقه يمكن للامة المقدسة ذات التاريخ المقدس الاحتفاظ بهويتها الفريدة المقدسة ، اى ان الوجود الامبريقي الميكانيكى هو الترجمة السياسية للتصور اليهودى القديم والصهيونى الحديث للشعب والتاريخ اليهوديين . وهذا التصور الانفصالى الميكانيكى للوجود اليهودى فى فلسطين يتضح فى كتابات الصهاينة الواحد بعد الآخر ، غفى كتاب **البعث والفكر** يشبهه بن جوريون اليهود الموجودين فى فلسطين **بالكونكويستادور** (غزاة أمريكا اللاتينية من الأسبان) (١) ، بينما شبههم وايزمان **بالمستوطنين الفرنسيين** فى تونس والجزائر (٢) . وقد كتب فلاديمير جابوتنسكى

(١٨٨٠ — ١٩٤٠) الى أحد أعضاء مجلس الشيوخ الأمريكى مبينا له فى صراحة باللغة ان اليهود ليس لديهم اى سيلة نحو العرب « **فالتاريخ** يعلمنا أن الاستعمار قد قوبل على الفور بعداوة شديدة من السكان الأصليين ... وقد يكون هذا أمر يبعث على الحزن ، ولكن هذا هو الحال ولا يمكن استثناء اليهود من هذه الحقيقة » (٣) . ولهذا السبب طالب جابوتنسكى الصهاينة أن يدربوا أنفسهم على فنون الحرب تماما كما فعل **المستوطنون البيض** فى كينيا (٤٣٦ ، ٤٣٧) ، اى أنه يرى أنه على الشعب المختار العودة الى ارض الميعاد متجاهلا الحقائق التاريخية على أن يتركز على نفسه هناك وأن يدافع عن وجوده المنفصل بشتى السبل .

وقد يقال ان هذه مجرد أحلام وتهيؤات صهيونية لم يقدر لها أن تتحول الى واقع ، وان الدولة الاسرائيلية فى رؤيتها لنفسها تختلف عن الحلم الصهيونى . ولكننا نجد الأمر عكس ذلك ، فاسحق رابين بعد حرب ٦٧ شبه الاسرائيليين **بالصليبيين** الذين اتوا من الغرب ليحرروا الارض المقدسة وعاشوا فيها . تحاصرهم الحضارة العربية الاسلامية . وحينما حاول ابا اييان فى كتابه

(١) فايز صايغ ، « صهيونية المستر اييان غير الاستعمارية » ، **مجل ايسيت فورم** (عدد ٤٢ سنة ١٩٦٦) . ٥٠ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) بن هرمان ، « الصهيونية والاسد » فى كتاب **الصهيونية واسرائيل والعرب** تحرير هال دريبر (بركلى كاليفورنيا : انديبننت سوشيلست بوكس ١٩٦٧) ٢١ .

صوت اسرائيل ان يحدد طبيعة العلاقة المثلى التى يجب ان تنشأ بين اسرائيل وجيرانها قتل : « ان هدفنا يجب الا يكون الاندماج (مع الدول المجاورة) ، بل على العكس يجب ان نتحاشى مثل هذا الاندماج . ان من اكبر مصادر قلقنا حين نتفكر فى وضعنا الحضارى هو الخوف من ان ازدياد المهاجرين من البلاد الشرقية قد يضطر اسرائيل الى ان تساوى بين مستواها الحضارى ومستوى البلاد المجاورة » . ثم يستطرد ايبان قائلا : « اننا بعيدون كل البعد عن ان نعتبر المهاجرين من البلاد الشرقية وسيلة للاندماج مع البلاد العربية ، اننا يجب ان نجعل المهاجرين يتشربوا الروح الغربية بدلا من ان ندعهم يدفعوا بنا الى « استشراف » غير طبيعى » . ويستخدم ايبان صورة **الليانكى** فى أمريكا اللاتينية ليصف العلاقة بين اسرائيل والبلاد العربية : « ان ما نطمح له هو ان تكون العلاقة بيننا وبين جيراننا ليست مثل علاقة سوريا بلبنان ، بل مثل علاقة الولايات المتحدة بأمريكا اللاتينية » (١) .

هذا الاصرار على الوجود الميكانيكى المنفصل هو الذى أدى فى نهاية الامر الى التقاء المصالح الامبريالية برؤى العهد القديم ! فالامبريالية العالمية (خاصة بعد تقرير بانرمان الذى نبه الى الامكانيات الثورية للعالم العربى) كانت فى شديد الحاجة لدولة تضم جماعة من المستوطنين الاوروبيين الذين لا تربطهم أى روابط اقتصادية أو حضارية بالمنطقة ليقوموا بحراسة المصالح الامبريالية والسهر عليها ، وقد وجد الاستعمار العالمى فى الصهيونية وجماهيرها ضالته المنشودة . وبهذا يكون المواطن الاسرائيلى الذى عبر عن سعادته البالغة « لكونه جسما غربيا فى الشرق الأوسط » (٢) قد حقق الرؤى الصهيونية اللاتاريخية التى ترى اليهودى كمراقب ازلى خارج التاريخ ، وخدم فى الوقت ذاته المصالح الامبريالية التى تحتاج لجندى ماهر ، معزول عن الواقع الحى ، يتحرك بمهارة ضد كل القوى الثورية ليوقف مسار التاريخ فى المنطقة

(١) لبا ايبان ، صوت اسرائيل (نيويورك ١٩٥٧) ٦٧ .

(٢) نيوزويك ١٢ مايو ١٩٦٨ .

وهناك لفيف من الزعماء الصهاينة كان واعيا تمام الوعي بهذا التلاقى بين الغيبية الصهيونية والمصالح الامبريالية ، فجابوتنسكى في خطابه الذى اقتبسنا منه آنفا يقول : « لا يوجد ما يدعو الى أن اتحدث باسمه عن هذه البديهة المعروفة ، الا وهى أهمية فلسطين بالنسبة للمصالح الامبريالية البريطانية ، كل ما ينبغى على اضافته هو أن هذه المصالح لن تكتسب أى شرعية الا بشرط واحد أساسى أن تتحول فلسطين الى دولة غير عربية » (١) . وبعد أن ذكر جابوتنسكى هذه « البديهة » حاول أن يبين لنا الأسباب التى بنى عليها موقفه : « أن العيب الرئيسى فى كل « قلاع » انجلترا فى البحر الأبيض المتوسط هو أنها كلها (باستثناء مالطة) تقطنها شعوب مركز جاذبيتها القومية توجد فى مكان بعيد آخر ، ولذلك فهى تتحرك تلقائيا وبشكل لا يمكن ايقافه نحو هذا المركز » ، ثم يستطرد جابوتنسكى ليشرح ماذا يعنى : « أن انجلترا تحكم هذه الشعوب رغم ارادتها ولذا فقبضتها عليها غير ثابتة ... وحتما سيجيء اليوم الذى سيعود فيه جبل طارق لأسبانيا وقبرص لليونان ، بل أن مصر قد هربت بالفعل ، إذ أن مصر عربية ، سياسيا ان لم يكن عنصريا أيضا » . ويستنتج جابوتنسكى من ذلك : « أن فلسطين أن بقيت عربية فاتها ستفسر فى مسارها العربى المقدر لها — اتحاد حل الدول العربية والتخلص من كل النفوذ الأوروبى . ولكن إذ كانت هناك أغلبية يهودية فى فلسطين ، وإذا كانت هناك دولة يهودية فى فلسطين ، محاطة من جميع الجهات ببلاد عربية فاتها للحفاظ على نفسها ستبحث دائما عن قوة امبريالية غير عربية وغير اسلامية — لتستمد منها العون » . أن جابوتنسكى كان يعرف أن الدولة الصهيونية بانشائها على أرض عربية كان مقدر لها أن تصبح دولة مطاردة منبوذة ذات وجود ميكانيكى ، لا علاقة لها بالحركة التاريخية العامة فى المنطقة ، ولكنه يجد ذلك « أساسا الهيا لتحالف دائم بين انجلترا وفلسطين يهودية (ويهودية فقط) » ، واصراره على فلسطين اليهودية مرده أنها تتمتع بالمواصفات التى يطلبها الامبرياليون . ان هذا أساس الهى حقا ، حيث يقوم الصهاينة بتوريد الأنبياء المحاربين ، ويقوم الامبرياليون بالتشجيع والتمويل بل والحماية

(١) بن هرمان ، نفس الصفحة .

(أنظر أيضا : « ١١ — الانعتاق الذاتى عن طريق الاعتماد على الجويم ») .

ولكن هذا لا يعنى ان الوجود الميكانيكى يظل على حالته الى نهاية الدهر ، فالتراكم الكمى قد يحول الواقعة الامبريقية الى واقعة تاريخية . ويجب أن نتذكر فى هذا المضمار أن الوجود العربى فى مصر فى مراحله الأولى كان ولا شك وجودا ميكانيكيا ، الا أن طابعه العام تغير بالتدرج حتى أصبح بعد حين وجودا عضويا ، وأصبحت مصر بلدا عربيا . (وان كان هذا قياسا مع الفارق ، فالعرب لم يأتوا لمصر حاملين رسالة أزلية تستبعد غير العرب ، كما أن إبادة السكان المحليين أو طردهم لم يكن جزءا من مخططهم ، فقد جاءوا لمصر ليستوطنوا فيها وليتعاملوا مع أهلها ولينثروا بينهم الاسلام وقيمهم الحضارية الأخرى) .

ه — ديكالكتيك الصهيونية الزائف وثبات الطلقات

بعد ان عرضنا للموقف الصهيونى من اليهود كأمة مقدسة وللتاريخ اليهودى كتعبير عن هذه القداسة ، سنحاول أن نعرض فى الفصول القادمة لبعض السمات الأخرى الفرعية لبنية الصهيونية، وأولى هذه السمات هو ما اسميه بديالككتيك الصهيونية الزائف . نالت الصهيونية بحل المشكلة اليهودية عن طريق تهجير « شعب بلا أرض الى أرض بلا شعب » ، ويتصور الصهاينة أنهم بهذا نجحوا فى تقديم رؤية جديدة للواقع تجمع بين الشيء ونقيضه وتتخطاهما . انها رؤية فى تصورهم تتخطى كلا من معاداة السامية التى ترفض اليهود رفضا كاملا وتحاول تصنيفهم حضاريا بل وجسديا ، والاندماجية الليبرالية التى تحاول القضاء عليهم بطريقة انسانية . تدعى الصهيونية انها تقدم الحل النموذجى المركب ، فهى مستخلص العالم من اليهود (وبذا ترضى المعادين للسامية) عن طريق تجميع اليهود فى دولة يهودية مؤكدة بذلك كيانهم وتراثهم اليهودين (الأمر الذى يثلج صدور المؤمنين) ، ولكن الدولة اليهودية ستكون دولة قومية

علمانية لا تختلف عن الدول الأخرى وبذا يمكنها أن « تندمج » في المجتمع الدولي (الأمر الذي يرضى الليبراليين العلمانيين) (١) .

وهذا البرنامج السياسي الذي يرضى جميع الأطراف قد شكل أساسا متينا للتحالف بين القطاعين الأساسيين للأقليات اليهودية في العالم الا وهما قطاع اليهود المتدينين في الشرق الذين يودون الحفاظ على يهوديتهم ، وقطاع اليهود الليبراليين في الغرب الذين يودون الإبقاء على اندماجهم الذي تهدده الهجرة من الشرق ، كما أن هذا البرنامج قد جعل من الممكن أن تتحالف جماهير البورجوازية الصغيرة اليهودية مع العناصر اليهودية الاشتراكية الثورية (ولا تزال هذه هي إحدى السمات الأساسية للحياة السياسية في إسرائيل) .

ولكن البرنامج السياسي الذي يرضى « جميع » الأطراف ويرضى العدو والصديق بغض النظر عن اتجاهاتهم السياسية أو حتى نواياهم الإنسانية لابد وأن يكون برنامجا سحريا قادرا على حل التناقضات . ولكن البرنامج الصهيوني لا سحر له ولا قداسة ، فقد حل الصهاينة وأتباعهم كل التناقضات بتجاهلها وذلك باتخاذ موقف هييجلي مثالي من الواقع والتاريخ . والرؤية الهييجلية المثالية للتاريخ تفترض أن ثمة فكرة مطلقة لا وجود مادي أو نسبي لها تحرك كل الظواهر ، وتكون بمثابة المحرك الأول (والأخير) للتاريخ ، وهي تسبغ عليه معنى عقلانيا وتبين « الحقيقي » من الزائف . ولأن « الحقيقي » الوحيد هو النهائي المطلق فإن هذه الرؤية الهييجلية تفترض أن كل التناقضات في جوهرها « غير حقيقية » لأنها مهما كان عمقا فما هي إلا حلقة في سلسلة ضخمة تؤدي إلى هذا المطلق الخالي من التناقض : الفكرة المطلقة أو الدولة البروسية أو اليهودية !

(١) فكرة الدولة اليهودية ٦٦ - ٧٦ .

والحيلة الهيجيلية المثالية لحل المشاكل تتلخص في رؤية التاريخ من وجهة نظر نهايته ، وإذا ما فعل المرء ذلك فإنه لن يرى إلا الفكرة المطلقة الثابتة متجسدة في كل التفاصيل المتغيرة ، ولكنه بعد قليل لن يرى إلا « الفكرة » نفسها وينسى التفاصيل لأن التفاصيل المحسوسة ستصبح تجسّدات متساوية في الدرجة والقيمة ، ليس فيها ما يميز الواحدة عن الأخرى . وحيث أن هذه الفكرة المطلقة غير محسوسة أو معروفة (إلا لله وحده عز وجل) ، فإنها تتحول إلى فكرة ذاتية يدعى الزعيم النبي (هتلر أو بن جوريون) معرفتها ، ويحاول قصارى جهده فرضها على الواقع المحسوس غير الحقيقي ! وهكذا يخلق الجدل الهيجلي على نفسه أو يفتح على المطلق الذاتي وهذا ضرب من الانغلاق هو الآخر (على عكس الجدل الماركسي المنفتح على الواقع التاريخي المتطور الحي ، ولذلك فهو جدل لا يمكنه أن يدور في حلقات مفرغة لأن الموضوع متغير ولأن الذات الخلاقة تتغير هي الأخرى بتفاعلها مع الموضوع الحي ، فتسمو عليه وتتخطاه . فمن وجهة نظر ماركسية إنسانية يجب ألا ننظر إلى الواقع بميكروسكوب النسبي فنفرق في التفاصيل لا ولا من خلال تلسكوب المطلق فلا نرى إلا فكرة لا ملامح لها ولا قسّمات) .

وقد أثرت الرؤية الهيجيلية المثالية في الفكر اليهودي الحديث وفي الفكر الصهيوني بشكل خاص (وذلك لتمثيل بنية الهيجيلية المثالية ببنية وحدة الوجود) ، فنحمان كرو كمال Nahman Krochmal (١٧٨٥ — ١٨٤٠) ، وهو من أوائل فلاسفة القومية اليهودية ، لم يجد سوى الجدل الهيجلي لبنى عليه نظريته في التاريخ اليهودي . ففي كتابه دليل للحاقين هذه الأيام يعرض نظريته القائلة بأن الأمة اليهودية ليست مثل بقية الأمم ، فكل الأمم تمر بدورة نمو ثم نضوج ثم اضمحلال ثم موت ، أما اليهود فلا يمرون بمثل هذه الدورة إذ أن الحياة تدب فيهم مرة أخرى ويبدأون دورة أخرى . ويفسر كروكمال مقدرة اليهود على التغلب على الموت والاضمحلال بأن اليهودية روح سرمديّة تعرف سر تجديد الحياة ذاتيا ، فبينما سيطر على الأمم الأخرى وجودها الجسدي أو أرضها القومية ، سيطر على اليهود « روح الجماعة » وحدها . بل أن كروكمال يرى أن « روح » هيجل « المطلقة » ليست سوى اله إسرائيل الذي يرتبط

به الشعب الاسرائيلي برباط وثيق ، وتحقيق ارادة هذا الاله او الروح المطلق هو للشعب اليهودي بمثابة المثل الأعلى بل والمصير المحتوم (١) . وبذا تصبح الامة اليهودية ليست مجرد ظاهرة حضارية منعزلة عن كل الحضارات القومية الأخرى ، بل على العكس تصبح وثيقة الصلة بها وتحويها كلها في وحدة عضوية منسجمة . ونحمان كروكمال بهيجليته العضوية المثالية لم يبتعد كثيرا عن الفكر اليهودي القديم بتصوره المسيحاني للتاريخ وبرؤيته للشعب المختار في مركز التاريخ .

هذه الهيجلية تتضح أيضا في فلسفة الفكر الصهيوني موسى هس في تحليله لما يسميه « بسبت » التاريخ ، والسبت هو يوم التعبد عند اليهود ، فبعد أن خلق الله الطبيعة احتفل « بسبته » الطبيعي ثم بدأ التاريخ . خلقت الطبيعة كاملة ثابتة ، أما الانسان غانه لايزال أمامه مجال للتطور ، وهو تطور سيصل الى قمته ونهايته في « سبت » التاريخ وذلك بقدم المسيح المنتظر . في هذه النقطة في الزمان ستنفلق الدائرة ويتحقق المطلق « ويصل التاريخ كالطبيعة الى حقبة كماله المتناسق » (٣٤) ، (التي هي بالطبع « العصر المسيحاني ») . وهس يستنتج من ذلك أن ثمة قانونا واحدا ازليا يحكم عالم الطبيعة وعالم التاريخ على حد سواء ، ان عالم التاريخ مثل عالم الطبيعة له نهاية وذروة يصل اليها ، وأى اختلاف قد يبدو لنا بين قوانين التاريخ والطبيعة ان هو الا نتاج مفاهيم ذاتية وناجم عن عدم الاحاطة « بالقوانين العظيمة الشاملة المقدسة » (٣٤ - ٣٥) ، وعن تصور خاطيء لتطور الانسانية التاريخي على أنه مجرد « تقدم » لا نهاية له ولا تحكمه قوانين ولا تحده حدود (٣٥) . وهس هنا يؤكد أهمية تصور النهاية المسيحانية للتاريخ ، وهذا هو جوهر الرؤية الهيجلية للتاريخ ، على عكس التصور الماركسي الذي يؤمن بوجود قوانين تحكم مسار التاريخ الا أنه لا يضع أية نهاية ثابتة له ، لأن أى مجتمع انساني بما في ذلك المجتمع الشيوعي لابد وأن يتخطى نفسه ،

(١) نفس المرجع ٦٨ و تاريخ اليهود ٥٢ - ٥٢٣ .

بل ان ماركس رفض التنبؤ بصورة مجتمع المستقبل حتى لا يقع في
هوة التصورات المسيحانية المثالية .

والصهاينة في رؤيتهم للتاريخ وللواقع المادى لا يرون شيئا
سوى فكرتهم الثابتة الخاصة بالعودة الى ارض الميعاد لتأسيس
الدولة اليهودية فيها ، وما تاريخ اليهود الا تعبير عن الرغبة
المعاصرة في العودة . ان التاريخ اليهودى تعبير عن هذا المطلق
الذى لا يقبل النقاش (لان الحق في العودة يستند اما الى وعد
اسطورى تلقاه اليهود في اول الايام او الى رغبة سيكولوجية
تعمل في نفوسهم ، وكلا الوعد الاسطورى والرغبة السيكولوجية
حينما يتحولان الى برنامج سياسى ، لا يمكن مناقشتها بشكل
عقلانى) ، لذلك حينما يشير اليهود الى حقوقهم « التاريخية »
او الى « حدود اسرائيل التاريخية » يجب ان نضع في اعتبارنا
دائما انهم لا يشيرون الى اى واقع تاريخى محسوس ، وانما
يشيرون الى تصوراتهم المسيحانية بخصوص هذه الحدود ،
فالحقوق والحدود « التاريخية » هي حقوق وحدود مقدسة ومطلقة
او حقوق وحدود « ذاتية » لا يمكن لأحد تقريرها او التعرف عليها
سوى الصهاينة . ولأن الصهاينة لا ينظرون الى الواقع الا من خلال
تلكوب المطلق الصهيونى كان من اليسير عليهم أن يتجاهلوا
النسبى والتاريخى والعينى وأن يتقبلوا بكل سهولة شعار
« ارض بلا شعب وشعب بلا ارض » ، لأنه شعار يقسم بالاتساق
الهندسى الدائرى المجرد . هذا الشعار الذى لا يزال بعض الصهاينة
يرددونه حتى الآن يتجاهل عناصر تاريخية محسوسة عديدة ،
فهو اولا قد حول فلسطين الى مكان غير مأهول بالسكان وحكم
على الشعب الفلسطينى بالزوال ، كما أنه حول الأقليات اليهودية
في الدياسبورا الى مفهوم مجرد يسمى « بالشعب اليهودى » وحكم
عليه بأنه في حالة دائمة من اليأس الشديد وفي حالة تطلع ورغبة
دائمين للعودة لارض الميعاد . هذا على الرغم من أن الهجرة
اليهودية في القرن التاسع عشر كانت متجهة من روسيا وشرق
أوروبا الى العالم الجديد ، وعلى الرغم من أن حوالى نصف يهود
العالم الآن يعيشون في ارض الميعاد الأمريكية ولا يريدون الترحل
منها .

لو لم يؤمن الصهاينة ايمانا اعمى بشعاراتهم لتحدى الواقع التاريخى الحى والمتنوع فى فلسطين والدياسبورا تناسق جدلهم الهندسى ، ولعل قصة ماكس نوردو — الزعيم الصهيونى وصديق هرتزل — الذى لم يسمع قط عن وجود الفلسطينيين الا فى المؤتمر الصهيونى الاول ، والذى اندفع لهرتزل معلنا استنكاره لعدم اخباره بهذه الحقيقة (الجوهرية او الفرعية ؟) — اقول لعل هذه القصة خير دليل على زيف جدلية الصهيونية ومثالياتها ، لأن الجدل الحقيقى هو الذى يأخذ كل العناصر الأساسية فى الاعتبار ويرى تفاعلها الحى داخل اطار تاريخى . لقد حولت الصهيونية التاريخ اليهودى والواقع الذى تتعامل معه بكل فتوئه الى ما يشبه القطار الذى يسير على قضبان مستوية من الشعارات والاساطير البسيطة الى محطة الخلاص . فلابلينلوم « لا يرى امامه الا طريقا مستقيما مؤكدا يقود الى الخلاص » (٧٠) ، اما هرتزل فيشبهه الحركة الصهيونية بعد تنظيمها بالقطار الكبيرة التى تحمل المسافرين والبضائع (١٠٢) الى محطة ارض الميعاد بالطبع . ومن المناسب ان نذكر ان هرتزل طيب خاطر نوردو واخبره ان كل شيء سيسوى فيما بعد (كيف ؟) ، وان نوردو لم يقتله الندم بسبب جهله المطبق ، بل استمر صهيونيا يحتفى بتلكسكوب المطلق حتى يوم وفاته (النهاية السعيدة دائما !) . ويبدو ان لويس ديميتز برانديس Louis Dembitz Brandeis (١٨٥٦ — ١٩٤١) القاضى الأمريكى والزعيم الصهيونى قد بلغت به الليبرالية وطيبة القلب الى درجة انه رأى « النهاية السعيدة » متحققة فى ارض الميعاد عام ١٩١٥ ، ففى مقاله « المسألة اليهودية وكيفية حلها » يؤكد لنا بكل براءة انه « ليس هناك مجرمون يهود فى المستعمرات اليهودية فى فلسطين لأن كل واحد منهم كبيرا كان أم صغيرا يشعر بمجد شعبه وبواجبه لحمل مثله العليا . ان يهود فلسطين الجدد ينشئون علماء بدلا من مجرمين » (٣٩١) . فى أركاديا الصهيونية ، فى ارض اللبن والعسل ، يجلس الرعاة مع الراعيات يعزفون على الناي بينما ترعى الحملان بنفسها . لقد ضغط المثل الأعلى على الجميع فتجسد الآن وهنا ! (وان كان برانديز لا ينسى بطبيعة الحال أن يفكر الرعاة المسلحين الذين يقضون الليل يحرسون أركاديا المسلحة ضد جماعات « قطاع الطرق ومسيبي أعمال الشغب » التى تعكر صفو الأحلام الرعوية الهيجيلية !) .

والنظر من خلال تلسكوب المطلق هو الحيلة الهيجيلية التي استخدمها بوبر لتبرير الاستيلاء الصهيوني على الأرض الفلسطينية (٣٤٠) . فحينما صرح غاندي بأن « فلسطين هي ملك العرب » كتب له بوبر خطابا بداه بالابتعاد عن الواقع المحسوس عن طريق العودة الى الماضي السحيق حينما استولى العرب على هذه الأرض عن طريق الغزو ، ثم تساعل بوبر عما اذا كان غاندي يقصد أن الاستيطان عن طريق الغزو يبرر حق ملكية فلسطين . وبوبر بذلك يتناسى الوجود التاريخي المحسوس للفلسطينيين الذي لا يمكن بأية حل مساواته بالوجود الصهيوني في فلسطين آنذاك . ثم يركز بوبر التلسكوب مرة أخرى ويتبعد عن الماضي السحيق الى المطلق ويقرر أنه ليس من حق أى انسان أن يقول « هذه الأرض ملكى » فالأرض المفتوحة ، في رؤية الصوفى ، « قد أعيرت الى الفاتح الذى أقام عليها وأن الله بانتظار ما سيفعل بها » (٣٤١) .

أن هذه الرؤية للتاريخ قد ساوت بين الوجود العربى والوجود الصهيونى في فلسطين ، فمن وجهة نظر المطلق تتساوى كل الأشياء ، بل أن أى وجود انسانى (عربيا كان أو صهيونيا) الغى تماما ، وأصبح التاريخ تجسيدا لارادة اله اسرائيل الهيجلى الذى يفعل بالأرض ما يشاء ، وأنبياء الصهيونية هم أقدر الناس بطبيعة الحال على تفسير هذه الارادة ، وما علينا نحن إلا أن نتقبل تفسيرهم حتى ولو كان يتناقض مع وجودنا الفعلى والتاريخى . (وقد سلط أيخمان تلسكوب المطلق على يهود أوروبا فذابوا واختفوا ، وحققت الدولة النازية اتساقها وأنسجامها الأرى الكامل الذى لا تشوبه شائبة يهودية واحدة . لقد أصبح التاريخ في كمال الطبيعة ، كلا عضويا دائريا ثابتا يبعث على الفرع والغثيان) .

وانشغال الصهاينة بالمطلق وبالآزلية دون التفاصيل يفسر لم تزخر كتاباتهم برموز الثبات . فهناك بطبيعة الحال جبل صهيون ذاته الذى سميت الحركة باسمه ، وهو رمز السكون والتمركز . وهناك الارتباط الصهيونى الصلب بأرض الميعاد « صرة الأرض » ،

كما يشير اعلان استقلال الدولة اليهودية الى «صخرة اسرائيل» (١) التي يقف في وسطها جسم صلب آخر : حائط المبكى . واليهود يصابون بمرض الثبات هذا في كتابات الصهاينة فهم يقفون داخل التاريخ « كحجر الزاوية » على حد قول بوبر (٣٣٣) ، ويشير هس الى « النواة الحية داخل الشعب » (٢٥) . أما بياليك فيتحدث عن الجامعة العبرية على أنها « أول وقد في عملية تشييد القدس العالية ثبت اليوم وللأبد » (١٧٣) .

ويرد يشفسكى الرومانيكى المتمرد على عناصر الموت في التراث اليهودى يرفض الثبات ويدعو اليهود ألا يكونوا بعد الآن « الواحا يكتب عليها الكتب » ، ولكنه حينما يصف حياة اليهود المستقبلية كما يتخيلها فإنه يستخدم صورة أخرى للثبات لأن اليهود بعد عودتهم « سيحيون ويقفون في ثبات » (١٨٤) .

والى جانب رموز الثبات هذه ثمة مجموعة من الاشارات التي قد توحى بالحركة والحياة وهى صور الينبوع والمنازة والمشعل ، فسركين يقرر أن اليهود كانوا حملة « مشعل الليبرالية » (٢٢٥)، وغوردون يتحدث عن فلسطين على أنها « ينبوع » حياة اليهود و « البقعة المركزية » فيها (٢٦٦) ، ويشير الحاخام كوك الى ينبوع الحياة المقدسة في أرض اسرائيل (٣٠٣) والى الينبوع الأزلى للروح اليهودية (٢٦٥) .

والرموز السابقة رغم أنها قد توحى بالحركة الا أنها في واقع الأمر رموز ثبات ، ولكنها تختلف عن سابقتها في أنها تدل على عدم التحدد في الوقت ذاته . فالينبوع يعطى ماءه دون أن يتغير ، تماما كالمشعل . ولكن الى جانب هذا يتسم الينبوع والمشعل بأنهما لا حدود لهما ، لأننا لا يمكننا أن نتعرف على الحدود التي تفصل بين المشعل وضوئه أو بين الينبوع ومائه ، كما أن مياة الينبوع تفيض فتغطى ما يحيطها ، والمشعل يشع ضوءه فيغمر ما حوله .

(١) قراءات في الصراع العربى الاسرائيلى ١٢٥ .

ولكن من أكثر الرموز تواترا في الكتابات الصهيونية تلك التي تعبر عن رغبة اليهود في الاحتفاء بالدائرة المفلتة ، مثل الهيكل الذي يحتفى به اليهود روحيا . فأرض إسرائيل هي هيكل يحتفى به جوهر الأمة الروحي (٢٠٦) والدين اليهودي هو الآخر هيكل لليهود (٢٠٩) أنه كالجدار المنيع يحمي اليهود ، وفلسطين كالمرفأ الذي انطلقت منه السفن (اليهودية) ويجب أن تعود اليه حتى لا تهمسها الأمواج مرة أخرى (٣٦٨) . ويشبه شيفتر اليهودية بعد البعث القومي ببرج القوة والوحدة الذي سيحمي المهاجرين لأرض الميعاد ويهود الدياسبورا (٣٧٧) ، ويشبهه بمالك المدارس الدينية اليهودية بالقلاع التي يلجأ اليها اليهود كلما اجتاحتهم العواصف والأتواء (١٧٤) وبالطبع نجد أن مخبأ المخابىء وكثر أمة الروح هو التوراة (٢٩٨) .

وترى الصهيونية أنه لابد من زيادة « الموانع الذاتية والقيود » حتى يحتفظ اليهود بتميزهم وانفردانيتهم ، وكذلك يجب الحفاظ على جميع الحدود التي تفصل بين اليهود والجوييم (٢١١) . وقد وصلت هذه الانغلاقية الى قممتها حينما دعت المجلة اليهودية الألمانية « جوديش رننشاو » كل اليهود أن « يلبسوا الشارة الصفراء بكل فخر » وذلك في عددها الصادر يوم أول ابريل ١٩٣٣ بعد أن بدأت المقاطعة النازية ضد اليهود ، وقد طلبت الصحيفة من اليهود ارتداء الشارة قبل أن يفعل النازيون ذلك بستة أعوام (١). ومن المعروف أنه كان من واجب كل يهودي ارتداء هذه الشارة إذا خرج من الحقو حتى يتسنى للآخرين التعرف عليه. ويعلق المفكر الصهيوني الأمريكى لودفيج ليفسون Ludwig Lewisohn (١٨٨٣ — ١٩٥٥) على هذه الواقعة بقوله : « يجب علينا أن نفعل ذلك دائما وفي كل مكان بل وأن نفعل أكثر من ذلك . أن

(١) حنا أرنت ، ايخمان في اورشليم : تقرير عن تفاعلة الشر (نيويورك :
ذي غابكينج برس ١٩٦٤) ٥٩ .

الشارة الصفراء يجب ان تخترق ثيابا الثوب حيث حاكها يد معادية عليه حتى تصل الى القلب وتتحد معه وان تملأه كلية وبشكل مطلق لدرجة لا يستطيع أحد معها التفريق بين الشارة الصفراء وقلب اليهودي « (٣٦٢) . ان صور الثبات والتمركز هي تعبير عن وجدان الصهاينة الذي يقبع في دائرة الجدل المثالي المزيف رافضا مجابهة التاريخ والواقع .

٦ - التجريبية الانتقائية

وديالكتيك الصهيونية الزائف هو نتيجة مباشرة لمحاولة الصهاينة تحويل التاريخ الى أسطورة والواقع الى مثال (كما فعل اليهود القدامى في تاريخهم) . ويستند هذا الديالكتيك الى ما يمكن تسميته بالتجريبية الانتقائية ، فالفكر الصهيوني عادة ما يعطى قارئه احساسا بأنه دائم الرجوع الى الواقع ، وبأنه خلص الى نتائج بعد تمحيص دقيق لكل عناصره ، ولكنه في واقع الأمر يقترب من الواقع مسلحا بكل غيبياته الصهيونية المثالية ليبحث عن العناصر التي تدعم رؤيته وينتقيها متجاهلا ما عداها . ولهذا السبب لا تؤدي عملية دراسة الواقع أو التاريخ الى أى تعمق انساني وانما ينتج عنها تحسين في الأساليب الدعائية (كما هو الحال في « علم » الآثار الاسرائيلي الذي يستخدم الاكتشافات الاثرية الاسرائيلية التي تتم بشكل « علمي » لتبرير الرؤى الصهيونية الصوفية) . والتجريبية الانتقائية هي وسيلة الغيبة الصهيونية لاضفاء طابع العلمانية على نفسها ، فالصهيوني العلماني مضطر للجوء الى المنهج التجريبي لأنه كما يزعم علمي ، ولأنه لا بد له من أن يتعامل مع الواقع رغم رفضه لهذا الواقع على المستوى الفكري . ولكن الصهيوني لا يملك بأية حال أن يسلم بوجود كل عناصر الواقع المختلفة (بما في ذلك عروبة فلسطين وتنوع يهود الدياسبورا)

لأن هذا يناقض التبسيطات الأسطورية التي يؤمن بها إيماناً صوفياً
أعمى . والانتقائية هي وسيلته المثالية لموازنة وضبط التجريبية
حتى لا تصل به هذه التجريبية إلى درجة تجعل الواقع المركب
يقتحم الأسطورة البسيطة .

ويجب أن نشير إلى أن المفكرين الصهيانة (بما في ذلك أحادهم) هم
نتاج المجتمع الأوروبي العلماني التجريبي ، ولذلك كان من
الطبيعي أن يترك المنطق التجريبي أثره عليهم ، ولكن هذا الأثر
لا يظهر على شكل رؤية علمية ، بل يأخذ شكل رؤية عملية ، بمعنى
أن استخدامهم للتجريب استخدام تكتيكي محض لخدمة الرؤية
الغيبية .

ولعل هذا المزيج الغريب من الرؤية العملية المتطرفة والصوفية
المغالية هو ما يفسر إحدى سمات تاريخ الحركة الصهيونية ،
فالحركة الصهيونية كانت دائماً لها حد أدنى عملي معلن وموضع
جدل شديد من جميع الأطراف ، وحد أقصى تحوطه الهالات
الصوفية . أما الذي يقرر الحد الأدنى المعلن فهو قوة الصهيونية
الذاتية ، والظروف العملية المحيطة بها ، وكلما قلت الضغوط
الخارجية وزادت القوة الذاتية الصهيونية كلما صعد الحد الأدنى
محاولاً عبثاً الوصول إلى الحد الأقصى — أقول عبثاً لأن الحد الأقصى
هو « المطلق » الذي لا تحده حدود . ولنتنظر مثلاً إلى الشعار
القومي الديني المقدس « من نهر مصر إلى الفرات » ، حينما يكون
بن جوريون في حالة انتشار مسيحاني يصبح نهر « مصر » نهر
النيل ذاته ، ولكن حينما يتساقط الفانتوم وتسبب له أحلامه
المسيحانية التوسعية بعض الصداع فإن نهر مصر يصبح نهراً
صغيراً في العريش . وحيث أننا من البشر العاديين فلنفترك مشكلة
الحد الأقصى لانبیاء الصهيونية القوميين — المقدسين ولفكرز على
الحد الأدنى في حركته الدائبة في الصعود إلى « الأين » ؟ إذا ما
نظرنا إلى قرارات المؤتمر الصهيوني الأول في بازل عام ١٨٩٧ ، ثم
إلى قرارات مؤتمر بالتي مور عام ١٩٤٢ ، ثم إلى قرارات المؤتمر
الصهيوني السابع والعشرين الذي عقد في القدس عام ١٩٦٨
ميلادية أو عام ٥٧٣٨ يهودية ، وأخيراً إلى قرارات المؤتمر الثامن
والعشرين للاحظنا التباين الشاسع ولرأينا الحركة الصاعدة للحد

الأدنى . فقد صيغت قرارات المؤتمر الأول بشكل لا يزعج الجويم (المطلوب عونهم في ذلك الوقت) ولا يزعج حكومة سويسرا (التي عقد على أرضها المؤتمر) ولذلك طلب المؤتمر إقامة « وطن قومي » (وليس دولة) في فلسطين يضمه « القانون العام » (وليس الشعب اليهودي أو العنف) كما أن المؤتمر دعا الى تنظيم « الاقليات اليهودية » في العالم على الا يسبب ذلك أى تعارض في الولاءات ، كما قرر المؤتمر محاولة تقوية الوعي والمواطف اليهودية (١) . ولم تصبح فكرة الدولة اليهودية الشعار الرسمي للحركة الصهيونية الا عام ١٩٤٢ في مؤتمر بالتمور ، الا أن المؤتمرين الصهيونيين قد عبروا في قرارات هذا المؤتمر « عن أملهم في انتصار الانسانية والديمقراطية » وما شابه ، كما أنهم رحبوا بالتعاون مع العرب وبالبعث العربى اليهودى المشترك ، ورغم أن الغيبات بدأت في الظهور الا أن الصياغة كانت لا تزال الى حد كبير علمانية (٢) . أما قرارات المؤتمر السابع والعشرين الذى عقد بعد حرب يوفيه وبعد ضم أرض عربية جعلت حدود الدولة اليهودية تقترب بعض الشيء من الحدود « التاريخية » وبعد توحيد القدس ، فأننا نجد أن الأهداف المعلنة قد قطعت شوطا كبيرا في رحلتها الى المطلق ، فأهداف الصهيونية هي وحدة الشعب اليهودى ومركزية دولة اسرائيل في حياته ، وجمع الشعب اليهودى في وطنه التاريخى عن طريق الهجرة من جميع البلاد ، وتدعيم دولة اسرائيل القائمة « على مثل الأنبياء في العدل والسلام » ، والمحافظة على أصالة الشعب اليهودى بتنمية التعليم اليهودى واللغة العبرية اليهودية والثقافة اليهودية (٣) . أى أن الدوائر الهندسية المتسقة والأساطير المعادية للتاريخ قد أصبحت برنامجا سياسيا معلنا ، ولا غرو فقد عقد المؤتمر في مقتصف « صرة » العالم . (أما قرارات المؤتمر الثامن والعشرين فهي استمرار لنفس النزعة الصوفية ، فقد أعلن المؤتمر أن حق الشعب اليهودى في أرض فلسطين غير

(١) قراءات ١١ - ١٢ .

(٢) نفس المرجع ٧٧ - ٧٩ .

(٣) المؤتمر الصهيونى السابع والعشرون ١٩٦٨ ، الجزء الثانى (القاهرة : مركز الدراسات الفلسطينية والصهيونية بالاهرام ١٩٧١) ٩٨١ .

قابل للطعن ، وأنه في حرب الأيام الستة صد المعتدون وحررت أرض
الآباء واعتقت القدس وأصبحت مدينة واحدة (١) .

وهكذا نرى أن انتصارات الدولة اليهودية لا تروى غليظا ، بل
إنها مستزید من ضراوتها ، لأن الاحساس بالحدود التاريخية
الحقيقية الذي يفرضه الواقع الموضوعى يأخذ في التآكل ويحل محله
الاحساس بالحدود « التاريخية » المقدسة الأزلية المطاطة ، حدود
لا يعرف لها حدود « ولا يمكن أن تقاس بالكيلو مترات ... لأنه
من الصعب استبعاد السامرة وجبل الخليل وغزة من رقعة الوطن
اليهودى » على حد قول موسى ديان ، أحد كبار مفسرى التوراة في
العصر الحديث والجنرال في الجيش الاسرائيلى (٢) .

٧ - الصهيونية والتراث اليهودى

تتضح انتقائية الصهاينة التجريبية وديالكتيكهم المثالى الزائف في
رؤيتهم للتاريخ اليهودى والتراث اليهودى في المنفى ، فهم قد أعادوا
كتابة التاريخ اليهودى مقسمين اياه الى قسمين - أولا : فترات
مظلمة عديدة « غير حقيقية » فقدت فيها الذات اليهودية وعيها
بنفسها (وخرجت من دائرة وحدة الوجود اليهودية) أو اخذت
موقفا سلبيا فوقت ضحية سهلة لصيادى الجويم . ثانيا : فترات
أخرى مضيئة قليلة ولكنها « حقيقية » تركزت فيها الذات اليهودية
على نفسها ودافع اليهود عن أنفسهم بضراوة وشراسة ، فترات
لم يكن اليهودى ضحية سهلة ولم يكن مواطنا عاديا بل كان بطلا
أو شهيدا (وحسب هذا الفهم تكون أكثر الفترات خصوبة في حياة
اليهود هي الأعوام القليلة التى قامت فيها دولة يهودية في فلسطين ،
وتكون ثورة المكابيين ، الذين دافعوا عن الدائرة اليهودية وعن
الوجود الرسمى اليهودى في فلسطين ، هي إحدى القمم القليلة بل
والفادرة لهذا التاريخ ، وتكون الحركة الصهيونية هي التعبير
الحقيقى عن هذا التمرکز العدوانى الذى يجسد الروح اليهودية) .

(١) هارتس ٢١ - ١ - ١٩٧٢ .

(٢) نيويورك تليز ١١ يونية ١٩٦٧ في اسرائيل الكبرى ٦٠٢ .

هذا الفهم للتاريخ اليهودى يلغيه كلية ويجرده من المعنى ، انه مهم يشبه من بعض الوجوه تصور بعض المتعصبين من المسلمين الذين يرون أن الأمة العربية والأمة الإسلامية في حالة تدهور تدريجى ومستمر من أيام الخلفاء الراشدين ، وأن العصر الذهبى لامتنا كان في أيام حكم أبى بكر وعمر بن الخطاب — رضى الله عنهما — أما العصر البرنزى فكان في عهد عثمان رضى الله عنه ، والعصر النحاسى هو عهد على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أما بعد ذلك فنقد أصبح تاريخنا ترابا في تراب ، الا من ومضات مضيئة سرعان ما تخبو مثل عهد عمر بن عبد العزيز .

ولكن ما هي العلاقة المثلى التى يجب أن تنشأ في العصر الحديث بين اليهودى وتاريخه ؟ أجاب المسكيليم على هذا السؤال بأنه ينبغى أن تكون علاقة اليهودى بتراثه وتاريخه علاقة نقدية مبنية على الايمان بمقدرة العقل والوعى على تبين الغث من الثمين والناسخ من الضار ، ولذا يجب على اليهودى أن يقبل من تراثه ما هو انسانى ومتفتح ويرفض ما يتناقى مع روح العصر الحديث (وهذا الموقف يشبهه في كثير من الوجوه موقف اليهودية الاصلاحية) . أما الصهاينة فانهم يطرحون المسألة بشكل مختلف تماما ، فاليهودى هو تراثه ، على حد قول جاكوب كلاتركين الذى يرى أن « اليهودى الذى لا يرغب في أن يظل منتبيا للشعب اليهودى ، والذى يخون الميثاق ويهجر رفاقه في معركتهم المشتركة من أجل الخلاص ، يكون بذلك قد تخلى عن تراثه الماضى وفصل نفسه عن شعبه . والسبب نفسه ، فان المتهود لا يستطيع أن يصبح يهوديا بقبوله لقيمنا الدينية والروحية فقط ، انه لا يكتسب نصيبا في المستقبل اليهودى الا اذا اشترك وقبل المساهمة في الحياة اليهودية وانخرط عن ارادة تامة في تاريخها » (٢٠٣) . فاليهودى هو تراثه وماضيه اذا رفض تراثه فانه يرفض يهوديته . هذا الموقف من التراث اليهودى (الذى ينكرنا بموقف اليهودية المحافظة) يتسم بالتبسيط الشديد لانه يجعل من هذا التراث المصدر الأساسى والوحيد « للقومية » أو الهوية اليهودية .

ولكن اذا كان هذا التبسيط قد حل مشكلة الهوية اليهودية فانه قد خلق في القوم مشكلة أخرى للصهاينة ، فاليهودى

الصهيوني إذا تقبل التراث اليهودي (والتراث اليهودي هو أساسا تراث الدياسبورا) فإنه بذلك يكون قد أفقد الصهيونية مبررها الفكري الوحيد للوجود ، ألا وهو التمرد على المنفى كحقيقة أساسية في حياة اليهود . وقد لخص بيرد يشفسكى هذا الموقف في عبارته التالية : « عندما نقهر الماضي نكون قد قهرنا أنفسنا ، وعندما يتغلب الماضي نكون نحن وأبناؤنا وأبناء أبنائنا من المقهورين ... الاكسير والسم يوجدان في نفس المادة ، فمن يرينا الطريق ، ومن يمهّد لنا المر » (١٩١ - ١٩٢) .

أجاب المفكرون الصهيونيون على هذا التساؤل بتجاهله أو بتبسيط الموقف ، فبيرد يشفسكى نفسه في مقال له تحت عنوان « تدمير وتعمير » يعلن تمرده الكامل على التراث اليهودي قائلا : « ان قلوبنا ... تحس أن انبعاث اسرائيل يعتمد على ثورة ... الانسان أهم من تراث أجداده ... ان « العقيدة » التقليدية لم تعد كافية بالنسبة لنا » (١٨٣ - ١٨٤) . لقد بلغ من طغيان التراث على اليهودي أن التراث يشغل الآن المركز في الحياة اليهودية « وأصبح اليهود ثانويين بالنسبة لليهودية » (١٨٣) . ولذلك ينادى بيرد يشفسكى بوضع اسرائيل (الشعب) قبل التوراة (التراث) (١٨٤) . وكما نرى يضع بيرد يشفسكى اليهودي في مقابل تراثه ويهوديته ولا يرى أن الواحد امتداد للآخر (كما فعل كلاتركين) . ونفس الفغمة المتمردة الرافضة نجدها في كتابات جوزيف حايم برنر Joseph Hayyim Brenner (١٨٨١-١٩٢١) الكاتب والروائي الصهيوني فهو يصف تاريخ اليهود في المنفى بأنه « تاريخ مليء بالاستشهاد » ويسخرية مريّة يصف الشعب اليهودي بالشعب الشهيد الذي قاسى كثيرا . وحينما يحاول برنر أن يصل الى جوهر الماضي اليهودي يكتشف أنه لم يكن « حربا طويلة من أجل حفظ قدسية [الدين اليهودي] ... أن تلك المئات من الأجيال لم تعش من أجل تقديس اسم الله ولكن من أجل خطط لانجاز أعمالهم التجارية التي يتطلبها منهم الجمهور العام من أجل فائدتهم . لقد كانوا يحيون لصيانة أموالهم وزيادة سعر الفائدة وليصونوا أنفسهم في وجه التعميد » (١٩٧) .

ورغم أننا عرضنا لموقف كلاتركين « كمدافع » عن التراث

ولموقف بيرديشفسكى وبرنر كرافضين له ، الا أننا لا يمكننا ان نقسم الصهاينة الى فريق من المؤيدين وآخر من الرافضين ، لأن الازدواجية توجد بشكل او بآخر في كتابات كل صهيونى على حدة .

ان موقف الصهاينة من التراث اليهودى يتسم بالتطرف في حالة القبول وبالتطرف في حالة الرفض ، لأنهم لم يصدروا عن تحليل موضوعى لشخصية اليهودى في وجودها التاريخى المحسوس كنتاج تختلط فيه حضارة الاغلبية التى يعيش بين ظهرانيها بترائه الدينى والثقافى الخاص به ، وانما صدر الصهاينة من تصور صوفى لليهودى على أنه داخل دائرة الوجود اليهودية لا علاقة له بحضارة الجويم . وبالتالي لم تكن علاقتهم بالتراث اليهودى المتنوع علاقة حقيقية ، وانما كانت علاقة تكتيكية مجردة تخضع لمتطلبات نظريتهم الاسطورية (تماما مثل مواجعتهم الواقع بتجريبيتهم الانتقائية) . فالصهيونية تستخدم الماضى والتراث اليهوديين لتبرر وجودها كحركة « قومية » ، ولكنها في مجال تبريرها لبرنامجها الثورى ترفض هذا التراث ذاته وتعدده تراثا طفيليا يعبر عن انحطاط الشعب اليهودى وترفض الماضى اليهودى وتقدمه على أنه ماض مأس وفظائع واضطهاد لا حد لهم . ولم يقع سيمون دوبنوف المؤرخ اليهودى في هذا التخطئ الشديد بين القبول والرفض المتطرفين ، لأنه صدر عن تحليل واقعى للتراث اليهودى وللشخصية اليهودية في الدياسبورا ، وتقبلها على أنها واقع تاريخى له جوانبه السلبية والايجابية مثلها في ذلك مثل أى ظاهرة تاريخية أخرى .

٨ — الغيبىات العلمانية

ان موقف الصهاينة الضيق من التاريخ اليهودى والتاريخ عامة وموقفهم المتناقض من التراث نجم عن ولاء أيديولوجى ضيق لمثل أعلى يدور حول الاساطير والمفاهيم الاسطورية اليهودية القديمة . وكما أشرنا من قبل احتفظ الصهاينة ببنية هذه الاساطير الدينية بعد اعطائها لونا ومحتوى علمانيا ، ومن هنا كانت تسميتنا لهذه المفاهيم بالغيبىات العلمانية . وقد كان هذا الامر سهلا المنال بالنسبة لهم بسبب ارتباط القومية اليهودية بالدين ، فالله حسب التصور اليهودى قد حل في كل شيء حتى أصبح كل شيء مقدسا ، مقدسا الى درجة

أصبح من الممكن معها للملحنين والعلمانيين أن يستمروا في تقديس هذه الأشياء بعد استبعاد الله مصدر كل قداسة .

(١) أسطورة العودة

من أهم الأساطير اليهودية على الإطلاق أسطورة المنفى والعودة والخلص ، وقد عكس الموقف التقليدي من الأسطورة تعقد موقف اليهودي في المنفى ، فحياته في هذا المنفى — مثل حياة كل البشر — لم تكن خيرا خالصا ولا شرا خالصا ، بل هي خليط من الاثنين . ولهذا كان يعد المنفى من وجهة النظر التقليدية عقابا نزل باليهود لعدم اخلاصهم لله ، ولكنه في الوقت ذاته كان يعد أحسب علامات تمييزهم . والعودة أيضا كانت شيئا مرغوبا فيه ، ولكن يجب عدم محاولة تحقيقها لأنها كانت تعنى نهاية التاريخ ، والله وحده هو القادر على أن يضع نهاية للزمان . هذه السلبية التي شجبها الصهاينة هي في الواقع تعبير عن محاولة اليهود التخلص من عبء المطلق الذي تلقىه على كاهلهم التصورات اليهودية القديمة ، ولذا رغم الحديث المستمر عن العودة وعن اللقاء في اورشليم في العام المقبل ، نجد أن اليهود فضلوا دائما البقاء حيثما وجدوا ، ومن الثابت تاريخيا أن عدد اليهود الذي « عاد » بالفعل الى أرض الميعاد كان باستمرار محدودا . بل إن في كتب اليهود الدينية دعوة صريحة لكل يهودي أن يبني بيته حيثما وجد سواء في الدياسبور أو في أرض الميعاد . لقد عرف أنبياء اليهود القدامى وعلمائهم أن « المنفى » هو الحقيقة الأساسية في الحياة اليهودية ، وما العودة الى أرض الميعاد سوى فكرة طوباوية يجب أن تحددها الحدود التاريخية .

وقد وجد المسكيليون أن عليهم أن يتخذوا موقفا من أسطورة المنفى والعودة ، فنادوا بأن المنفى واقع مؤلم ومؤقت يجب أن يزول عن طريق الاندماج ، أما العودة الى صهيون فهي بالنسبة لهم كانت فكرة روحية تعادل في قيمتها حلم الإنسان بالعصر الذهبي .

ونادى الصهاينة أيضا بأن المنفى حقيقة مؤلمة يجب القضاء عليها بشكل فعلي ومباشر ، ولكنهم رفضوا الاندماج كحل وحسبوا أسطورة العودة الى شعار قومي وعلماني مؤكدين الجانب القومي لليهودية بعد فصله عن الجانب الديني .

يقول هوارس ماير كالن Horace Mayer Kallen (١٨٨٣ —) الفيلسوف البرجماتي الألماني الأصل ، ان الصهيونية هي إعادة احياء فكرة القومية اليهودية على أساس مدني علماني مثل القوميات الاوربية (٣٩٦) ، كما يقرر ان الحياة اليهودية حياة قومية لا يشكل الدين سوى جزء منها . ويكرر كلاتزكين نفس الفكرة في كتاباته ، فهو يعتقد ان التعريف الديني لليهودي تعريف ذاتي ، وهو يرى ان الصهيونية حاولت ان تضع تعريفا علمانيا للذاتية اليهودية كما انها حاولت ان « تنكر عن قصد أو عن غير قصد » ، أي مفهوم «لهذه الذاتية على أساس مقاييس روحية» (٢٠٥) . هذا لايعنى ان الصهيونية «تنكر القيم الروحية» ولكنها ترفض « ان ترفع هذه القيم الى مستوى المقياس الذي تعرف به الأمة » (٢٠٣) ولذا فاليهودي الذي ينكر « التعاليم اليهودية » لا يضع نفسه بذلك خارج الجماعة ، كما ان أي شخص غير يهودي يقبل التعاليم اليهودية لا يصبح بذلك يهوديا . « ليس من الضروري ان يؤمن الفرد بالدين اليهودي أو بالنظرة الروحية العامة لليهود لكي يصبح جزءا من الأمة » (٢٠٢) . ويشارك سمولنسكين كلاتزكين في موقفه : « اذا كان الشعور القومي هو أساس وجودنا فليس هناك أي داع للاختلاف على قوانين وعادات دينية سخيفة ... مهما كانت خطايا اليهودي ضد دينه فهي لا تهم لان كل يهودي ينتمى الى شعبه طالما انه لا يخونه » (٤٥) . اذا كانت اليهودية مجرد قومية تصبح العودة مجرد شعار قومي لا علاقة له بالشعارات الدينية الأخرى ، وهذا ما يراه سمولنسكين الذي يفصل بين العودة واسطورة « المسيح المخلص » ، فهو يطمئن أولئك الذين يخشون الذهاب الى الأرض المقدسة — على أساس ان عودتهم تعد من وجهة النظر الدينية تجديقا — قائلا : ان الصهاينة لا ينوون ان يعجلوا قدوم « المسيح المنتظر » ، « نحن نسعى فقط لاجاد الرزق في أرض تأمل منها ان توفر الراحة للذين يعملون عليها » (٥١) . ويفرق فوردو بين الصهيونية الحديثة والصهيونية القديمة الدينية قائلا : ان الصهيونية الحديثة « سياسية وليست كالأخرى دينية صوفية » فهي غير مرتبطة بالرؤى المسيحية ، ولا تتوقع العودة الى فلسطين بمعجزة انما ترغب في اعداد طريق العودة بجهودها الخاصة » (١٣٧) . وبذا يمكن ان تتم العودة عن طريق المناورات السياسية او العنف او القهر أو أي طريقة علمانية أخرى .

ولكن اذا كانت الصهيونية بالفعل حركة علمانية — كما تصف نفسها — واذا كان الغرض من انشاء الدولة اليهودية هو انقاذ ملايين الضحايا من اليهود من اضطهاد الجوييم ، فلم فلسطين بالذات اذن ؟ الرد الصهيونى يقسم بالبساطة الشديدة : الصهيونية هى تجسيد لفكرة العودة الى فلسطين ، وهى تجسيد لا تتسائل الصهيونية عن طبيعته لان ارتباط اليهودى بأرض الميعاد هو ارتباط لا عقلانى لم تنقطع اواصره عبر التاريخ . (وهذه هى الملائكية واللااخلاقية التى تسم مقدسات اليهود القومية ، أى أننا عدنا للبنية الاسطورية مرة أخرى) . أن ارتباط اليهود بالأرض هو ارتباط صوفى لا يمكن للجوييم فهمه ، ، او كما يقول الحاخام ابراهيم كوك : « ليست أرض اسرائيل شيئاً منفصلاً عن روح الشعب اليهودى ، ... [انها] جزء من جوهر وجودنا القومى ومرتبطة بحياته ذاتها وبكيانه الداخلى ارتباطاً عضوياً ، والعقل البشرى فى أسى مراقبه لا يستطيع أن يدرك معنى قدسية أرض اسرائيل الفريدة ، ولا يستطيع أن يدرك الحب الكامن فى أعماق شعبنا نحو هذه الأرض ... ان ما تعنيه أرض اسرائيل يمكن فهمه فقط من خلال روح الرب المنتشرة فى شعبنا ككل والتى تشع بتأثيرها على كل العواطف السليمة » (٢٩٤) . أن ارتباط اليهودى بأرضه الموعودة هو تعبير آخر من تميزه على العالمين ، وعن رغبة اليهود كأمة روحية فى أن « تكشف طبيعة الله للعالم » . ان اليهودى فى الأرض المقدسة يصبح قادراً على « قبول الحقيقة الالهية ... هناك فى تلك الأرض ، يكون الذهن مهيباً لادراك معنى نور النبوة والاستنارة باثعاع الروح القدس » (٢٩٥) .

وقد لا يوافق الصهونيون « الليبراليون » مثل بن جوريون ، أو « الماركسيون » مثل بوروشوف على صياغة الحاخام كوك ، ولكنهم دون شك يؤمنون بالرابطة المصوفية الملائكية التى تربط اليهودى بفلسطين . ولذا أصروا جميعاً (باستثناء فئة قليلة تسمى بالصهونيين الاقليميين الذين بحثوا عن أى بقعة فى العالم لإنشاء الدولة اليهودية) أقول أصروا جميعاً على أن تكون فلسطين هى الأرض التى تنشأ عليها الدولة والتى يجب أن يتجمع فيها المنفيون . وقد يختلف الصهاينة فيما بينهم على « شكل الدولة » : فبعضهم يرى أن تكون علمانية ليبرالية بيضاء ، والبعض الآخر ينادى بأن

تكون ماركسية ثورية حمراء ، وفريق ثالث يرى أن تكون دولة يهودية ثيوقراطية صفراء تنفذ ما جاء في الكتب الدينية اليهودية عرقيا ، غير أن كل هذه الخلافات هي خلافات حول الشكل ، لأن أسطورة العودة تشكل نقطة البدء لكل هذه المدارس الفكرية الصهيونية .

ولكن الصهيونية كما اثرننا من قبل حولت أسطورة العودة الى رؤية للتاريخ بل والى رؤية للإنسان اليهودي والى برنامج سياسى ، ولذا يمكننا القول أن الصهيونية تخلق غيبياتها العلمانية ، فهي علمانية لأنها فرغت الأسطورة الدينية من محتواها الدينى والروحى وحولتها الى واقع سياسى خاضع للتقنين الموضوعى ، ولكنها غيبية لأنها تستند الى أساس لا عقلانى ليس له وجود انسانى أو تاريخى استوردته الصهيونية من التراث الدينى اليهودى (ولهذا السبب كان على الصهاينة أن يخفوا عن أنظار العالم « المنحصر » الوجود الفلسطينى حتى تظهر رؤيتهم على أنها مثالية ثورية ، وليست مثالية غيبية) . بسبب هذه الغيبة العلمانية لم يجد المعسكر الدينى أية غضاضة فى الانضمام للصهاينة العلمانيين . يقول الحاخام صموئيل موهيليفر Samuel Mohilever (١٨٢٤ - ١٨٩٨) : « يعتقد بعض الحاخاميين أن القومية تتناقض مع إيماننا بقدم المسيح ، لذلك فأنا مضطر لأن أعلن أن ذلك ليس صحيحا على الإطلاق لأن أملنا وإيماننا كان دائما ولا يزال هو أن مسيحنا المنتظر سيأتى ويجمع اسرائيل المشتتة ليسكن أبنائها فى بلادهم بدل أن يظلوا هائمين على وجه الأرض يتنقلون من مكان لآخر » (٢٨٣) . وقد أشار هرتزل فى خطابه أمام المؤتمر الصهيونى الأول فى بازل عام ١٨٩٧ الى ظاهرة التعايش بين اليهود المحافظين التقليديين واليهود المحدثين داخل اطار الصهيونية (دون أن يحاول بالطبع تفسيرها) : « قدمت الصهيونية شيئا عظيما يكاد يكون مستحيلا حتى الآن ، الاتحاد الوطيد بين العناصر اليهودية الحديثة المتطرفة والعناصر اليهودية المحافظة المتطرفة . وقد حدث هذا بموافقة الطرفين دون أى تنازل من الجانبين ... ودون أى تضحية فكرية » (١٢٤) (وكيف كان ذلك ؟) . وهذا مثل آخر على الديالكتيك الزائف أو على امكانية أن تتعايش التناقضات داخل العقل الصهيونى دون تفاعل أو حسم ، ولكن هذه التناقضات ليست حقيقية لأنها

تمس المظهر دون المخبر . ان الفارق بين « علمانية » الصهاينة السياسيين وغيبية الصهاينة الدينيين ليست بأى حل جوهرية . وهذا يفسر لماذا يمكن أن يتفق في الراى كل من موثى ديان ، الصهيونى الملحد ، واسحق نسييم ، رئيس للحاخامات السفارديين فى اسرائيل . فحينما صرح ديان بأنه اذا اجتمعت التوراة وأمة التوراة لأبد وأن تكون معهما أيضا أرض التوراة ، (وهذا هو ثالث وحدة الوجود) أبرق له الحاخام نسييم مهتئا اياه « لتفهمه العميق للمفهوم اليهودى » ، ودعا له بأن يكون من المحظوظين الذين سيرون اسكان وتعمير هذه الأملكن بعد أن تتولاها اسرائيل ! لقد اتفق الحاخام والجنرال لانهما ينتهيان الى تراث حضارى لا يفرق بين ما هو مقدس وما هو قومى ، ولا بين عالم الحاخام الالهى وعالم الجنرال القومى ، بل تسيطر عليه صورة النبى الغازى الذى يجسد ارادة الشعب التى هى ارادة الله ، وفى هذا الاطار يصبح الجيش الاسرائيلى خير مفسر للتوراة كما يقول النبى الغازى بن جوريون .

ان الفارق الوحيد بين الصهيونى الليبرالى العلمانى والصهيونى الدينى أو الروحى أنه بينما لا يلتزم الاول بأية قيم روحية أو أخلاقية ، يلتزم الآخر — على الأقل فكريا — بالقيم الأخلاقية اليهودية . وهذا تناقض لم يتمكن احاد هعام ، مؤسس الصهيونية الروحية ، من حسمه ، فقد اراد أن يحول فلسطين الى « مركز روحى » لليهودية فى العالم ، ولكنه رغم علمانيته كان يؤمن ببعض القيم الأخلاقية . ولذا فانه حينما ذهب الى فلسطين ، الى مركزه الروحى ، وسمع عن ارهاب الصهاينة ضد العرب ، فجع فيما رأى وقال كلمته المأثورة : « اذا كان هذا هو المسيح المنتظر ، فانى لا أود رؤيته » .

(ب) اسطورة استمرار اسرائيل والقياس التاريخى الزائف

ان وجود المطلق متجسد فى اليهود داخل التاريخ يلغى فكرة الصراع الحقيقى المحسوس الذى يدفع بالتاريخ للأمام ، كما أنه يؤكد الاستمرار والثبات وينفى التغير والتحول . وبالفعل تسيطر على العقل الصهيونى اسطورة استمرار اسرائيل ، فيهود العالم

الحديث هم ورثة مباشرين لقبائل اسرائيل القديمة ، وما حكومة اسرائيل الحالية في فلسطين المحتلة الا كومونولث اليهود الثالث (باعتبار - ان الكومونولث الاول هو الذي حطمه الآشوريون في عام ٧٢١ ق.م. والثاني هو الذي حطمه الرومان عام ٧٠ م.م.) . يقول سمولنسكين : « نعم نحن شعب ... نحن شعب منذ البداية حتى الآن ، لم ننقطع عن كوننا شعبا بعد ان دمرت مملكتنا وشرطنا من ارضنا » (٤٦) . اما نحن سريكين فيقول انه ظن لبعض الوقت بأن الجرح اليهودي الشهير الذي استمر في النزف « منذ سقوط القدس حتى سقوط الباستيل كان على وشك الانهيار الكامل ولكنه خابت ظنونه » (٢٢٠) . ويقول سوكولوف انه ثمة وحدة شاملة « في التاريخ اليهودي تضم كافة الاجيال الممتدة من ابراهيم حتى المعاصرين » (١) . ولذلك يدعى بعض الصهاينة « بأن اصول الصهيونية تمتد بعيدا منذ ايام الانبياء الاوائل » ، وان الدعوة للعودة شيء متصل منذ بداية التاريخ اليهودي حتى الآن ، من الانبياء الاول الى هرتزل (٣٥٤) على حد قول ادموند فليغ Edmond Fleg (١٨٧٤ - ١٩٦٣) الشاعر والمؤلف المسرحي الفرنسي اليهودي .

وتترجم اسطورة الاستمرار نفسها الى ما يمكن تسميته بالقياس التاريخي الزائف الذي يفترض ان الظواهر المحيطة بيهود اليوم تشبه في كثير من الوجوه الظواهر التي واجهها اليهود في ماضيهم السحيق . فنجد مثلا ان حايمم ويزمان يطالب العرب في خطابه امام المؤتمر الصهيوني العشرين (١٩٣٧) بالتفاوض مع اليهود ، مذكرا اياهم انه خلال الفترات العظيمة من التاريخ العربي تعاون الشعبان سويا في بغداد وقرطبة على حفظ كنوز الثقافة الغربية (٤٥٧) . العرب لا زالوا كما كانوا ، واليهود ايضا لم يتغيروا ، ايا الظروف التاريخية المتغيرة فهي امر ثانوي يمكن التفاوض عنه كلية . ويدعو الحاخام كالبشر ، وهو من اوائل المفكرين الصهيونيين ، كل يهود العالم للعودة للأرض والعمل بجد « وهكذا سوف لا نحتاج

(١) يوزي ايفانوف ، ترجمة ياهر عمل ، الصهيونية حذار : دراسة سوفيتية في تاريخ وتنظيم الحركة الصهيونية (القاهرة : دار الكتب العربية ١٩٦٩) ص ٧ .

لاستيراد القمح من مصر أو من البلاد المجاورة لأن محصولنا سيكون وفيراً » (١٦) . وقد تكون الإشارة هنا للتوقعات المسيحانية اليهودية بخصوص المعجزات التي ستحدث في أرض الميعاد بعد العودة ، فالأرض الجدياء ستخصب وتزدهر ، واللغة التي حلت على الأرض لغياب أهلها عنها ستزول لتعم النعمة والبركة (١) . ولكن هذه ليست هي القضية ، فالذي يهمنا هو أن ظاهرة حديثة مثل الاستعمار الاستيطاني ينظر إليها الحاخام على أنها تعبير عن حقيقة أزلية صوفية ، وينظر إليها في ضوء تجارب اليهود الأسطورية . ولعل من أطرف الأمثلة على هذا الإيمان باستمرار إسرائيل والقياس التاريخي الزائف هو ما صرح به أستاذ للتاريخ بالجامعة العبرية من أن جنود إسرائيل عام ١٩٦٧ قد راوا البحر الأحمر لأول مرة بعد أن عبره موسى منذ آلاف السنين ! وقد كان من الشائع في الولايات المتحدة بعد حرب يونيه مباشرة أن يحاول بعض الحاخامات تفسير أسفار العهد القديم مبينين أن معارك يونيه أن هي الا تكرار لمعارك حدثت من قبل (الدوائر المخلقة مرة أخرى والتاريخ الذي لا معنى له) . ولكن المرء لا يملك الا ان يتساءل : قد يكون ضرب طائرات الميج الفرعونية بالقتال بل ورش معسكرات الكنعانيين بالنابالم قد ورد ذكرهما في الكتب اليهودية المقدسة القومية ، ولكن هل ورد أيضا ذكر ضرب الليرتي ؟ ألم يكن من الأفضل ان يطلب العبرانيون من حلفائهم صبح غواصة التجسس بالدم حتى لا يهلكها يهوه عن طريق الخطأ ؟

ويجب علينا التنويه هنا بأن أسطورة العودة وأسطورة استمرار إسرائيل ليستا الأسطورتين الوحيدتين اللتين ورثهما الصهاينة عن التراث اليهودي ، فهناك أسطورة الشعب المختار وأسطورة المسيح المخلص وأسطورة الأمة الروحية وهي أساطير سبق أن عرضنا لها وسنشير لها عدة مرات في طي دراستنا .

(١) أسعد رزوق ، القليود والصهيونية (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ١٩٧٠) ٢٥٦ - ٢٥٨ .

٩ - المصطلح العلماني الصوفي

يبدو أن مقدرة تناقضات الفكر الصهيوني على التعايش لا حدود لها ، فمن الملاحظ أنهم رغم تأكيدهم على روحانية الأمة اليهودية واستمرارها لا يكونون عن تردد أن اليهود يكونون أمة مثل كل الأمم وأنهم يريدون أن يعيشوا حياة طبيعية . وهذا الشعور ليس من قبيل الدعاية السياسية المقصود منها الاستهلاك العالمي أو المحلي ، بل هو جزء حقيقي من الرؤية الصهيونية المتناقضة كما تدل على ذلك كتابات بنسكر وهرتزل وبن جوريون ، فاليهودي الصهيوني يعود الى ماضيه ويهرب منه ، وينفس الطريقة نجد أنه يدافع عن دوره غير التاريخي المطلق ، ولكنه يلوذ أيضا بالفرار الى الوجود الانساني العادي . والرغبة في الحياة العادية هي في الواقع تعبير عن رغبة في الهروب من الماضي اليهودي ومن التميز الذي يسبب الانعزال . ان غوردون يدعو اليهود الى الخروج من توقعة الجتو والماضي ليحيوا حياة طبيعية غير هامشية (٢٥٥) ، لأن حياة النفي اعاققت نمو اليهودي الطبيعي وتحقيقه لذاته (٢٦١) . ثم يضيف غوردون أن « على من يريد البعث القومي والحياة اليهودية الكاملة أن يتخلى عن حياة النفي » (٢٥٩) . فكما وضع بيرديشفسكي اليهودي في مقابل ماضيه ، يضع غوردون حياة الشعب المختار الجماعية المتميزة مقابل حياة الانسان اليهودي الطبيعية العادية .

وقد حاول سمولنسكين داعية الاحياء الثقافي العبري أن يحل هذا التناقض بالطريقة الصهيونية المعتادة : أما تجاهل التناقض أو تصفيته ، فهو يقول : « توراتنا هي وطننا الذي يجعل منا شعبا وأمة بالمعنى الروحي » أي أن اليهود أمة روحية ليست مثل كل الأمم ، ولكنه يضيف قائلا : « ولكننا في حياتنا العملية الطبيعية كبقية الناس » (٤٧) ، (غيبية الرؤية وعلمية السلوك اليومي) . اليهودي إذن روحى عملى ، قبيى علمانى ، حاضره الماسدى لا ينقض وجدانه الأسطوري ، أي أنه أعجوبة العجائب ، ليس هو نتاج المقدسات القومية والقومية المقدسة ؟ وهذه التناقضات التى لا تكون كلا متكاملًا وإنما تكون مزيجا ميكانيكيا بين متناقضين ثابتين غير متفاعلين ، هذه التناقضات عبرت عن نفسها فى أسلوب

الصهيانية الذي تختلط فيه المصطلحات الصوفية الغيبية بالمصطلحات العملية السياسية . ولعل هذه العبارة التي وردت في خطاب الشاعر حاييم نحمن بياليك في حفل افتتاح الجامعة العبرية في القدس عام ١٩٢٥ من أفضل الأمثلة على هذا المصطلح العلماني الصوفي الصهيوني ، فهو يتحدث عن وعد بلفور (هذا القرار السياسي) على أنه سيبدأ عهداً جديداً « خير من كل العهود السابقة » ، وسيقضي بانجيل جديد ، انجيل خلاص البشرية كلها « (١٨٠) . ويبدو أن وعد بلفور (وهو جزء من التاريخ اليهودي المقدس) تحيطه الآن هالة من القداسة في عقل الصهيانية الذي تعشش فيه كثير من أقاصيص الماضي والأساطير . فالعالم الكيميائي الصهيوني الشهير وايزمان ، الذي تسمى باسمه كثير من المعاهد العلمية في إسرائيل وخارجها ، مارس أحاسيس صوفية عميقة بعد حصوله على هذا الوعد السياسي من الامبراطورية البريطانية : « صدقوني بأنني عند ما كنت أحمل وعد بلفور بيدي شعرت وكأن شعاعاً من الشمس حط على ، وخيل الي بأنني سمعت وقع أقدام المسيح المنتظر » (٤٥٠) . وهكذا ترجمت الحقيقة السياسية نفسها الى واقعة أسطورية في ذهن وايزمان ، فلمستخدم المصطلح الصهيوني المتناقض . وإذا كان بلفور هو الذي عجل بوصول المسيح المنتظر فان « وجود عبد الناصر في الشرق الاوسط كان له أثر عكسي فهو الذي يعرقل مجيء المسيح ، ويعرقل بداية الخلاص » (وهذا تصور سائد في إسرائيل كما يبين يوري أفنيري في مقال طريف له عنوانه « الجان والأرواح ») (١) . ومن أطرف الأمثلة على هذا المصطلح العلماني الصوفي مقال سمولنسكين المعنون « البحث عن طريقنا » الذي يحاول فيه أن يبرر اختياره لفلسطين كاتسبب الاماكن للهجرة اليهودية . أما السبب الاول الذي يسوقه فهو كما يلي : « سيذهب أولئك الذين يحبون ذكريات أسلافهم عن طيب خاطر اذا تأكدوا من أنهم سكمسون معيشتهم هناك » (٥٢) . ينقسم هذا العرض للقضية الى قسمين لا يربطهما رابط ، قسم صوفي سلفي والثاني عملي بارد . أما السبب الثاني الذي يورده سمولنسكين فلا يقل تناقضاً : « الأرض المقدسة

(١) هاعوم هزه ٧ - ١ - ١٩٦٩ .

ليست بعيدة عن مساكنهم » . يبدو أن العناية الالهية قد اختارت الأرض المقدسة بالقرب من منافي اليهود حتى يمكنهم « العودة » إليها بسعر معقول . أما السبب السادس والآخر فهو متناقض لدرجة تثير الضحك والاشمئزاز معا : « يسقطيع المستوطنون أن يزدهروا بلقائمة مصانع للزجاج والمفتحات المشابهة لأن رمال الأرض المقدسة ذات نوعية عالية » (٥٣) . لأن اليهودى يعيش خارج التاريخ وداخله ، داخل الدائرة المقدسة لبعثا وداخل الكرة الأرضية مؤقتا ، فهو مرتبط صوفيا بالأرض المقدسة ، ولكنه أيضا يعرف سعرها الحقيقي ويغرف كيف يعرضها للبيع والإيجار ! وقد برر بوروشوف ، الماركسى الصهيونى المسكين ! تفضيله لأرض الميعاد على أى بقعة أخرى فى العالم على أساس أنها أرض فقيرة لا تصلح للاستثمار الرأسمالى الذى هدفه الربح المادى المحض ، وحسب هذا التصور نكتشف أن العناية الالهية عندها اتجاهات يسارية تتفق واتجاهات هذا الصهيونى الماركسى . ولكن بوروشوف حسم هذا التناقض عن طريق تقبله على علته دون مناقشة .

١٠ — أسطورة العودة للطبيعة الكونية

يمكننا أن نعد الصهيونية — من بعض النواحي — حركة رومانتيكية فهي تنور على الفكر الاستقارى وعلى العقل عامة ، كما أنها تؤكد أهمية العاطفة وتطالب اليهود بالعودة الى الماضى الجيد وبالتمسك بالتراث . كما أن لا تاريخية الصهيونية وتيار وحدة الوجود الذى يسرى فيها يشبه الى حد بعيد النزعة اللا تاريخية والبانثية الموجودة فى الفكر الرومانتيكى . ومن أهم الشعارات الرومانتيكية التى تبناها لفيف من المفكرين الصهيونيين شعار العودة للطبيعة ، فأرون غوردون يدعو اليهود للعودة للطبيعة فى نفمة منعمة بالعاطفة : « وعند ما تعود الى الطبيعة أيها الانسان ستفتح عيونك فى ذلك اليوم وتنظر مباشرة فى وجهها ، وفى مرآتها سترى صورتك ، عندئذ ستعرف أنك انما قد رجعت الى نفسك لأنك عندما اختبأت عن الطبيعة كنت مخبئا عن نفسك » (٢٥٥) . أما برديشفسكى فهو يقول : « أن الكون يدل على عظمة الله ، والطبيعة تحكى صنع يديه ، لأن الطبيعة هى أم كل الحياة ومصدر

كل الحياة ، انها منبع الكل ، وهى منبع وروح كل الكائنات الحية « (١٨٦) (الواحد الكل الذى يبتلع الأجزاء ويطمس معالمها بدا فى الظهور) . وهو يخلص من ذلك الى أن « كل من يسير فى طريقه ويرى شجرة جميلة وحقلًا جميلًا وقضاءً جميلًا ويتركها ليفكر فى أمور أخرى ، يكون كمن خسر حياته » . وفى لغة كلها لوعة والم يقول : « ردوا إلينا شجراتنا الجميلة وحقولنا الجميلة ! ردوا إلينا الكون » (١٨٧) .

والدعوة للعودة للطبيعة تبدو وكأنها دعوة للحياة ولتجديدها ، فبرديشفسكى يرى أن اليهود بابتعادهم عن الطبيعة قد أصبحوا « رجالًا نضبت قواهم الطبيعية » (١٨٣) . أما غوردون فيرى أن السنوات الألفين التى قضاها الشعب اليهودى معزولاً عن الطبيعة داخل أسوار المدينة كانت سنوات سجن (٢٥٥) . والابتعاد عن الطبيعة حول الدين اليهودى الى « يهودية مجردة » تعلو على الإنسان ، لأنها تضعه فى « قوالب جاهزة ميتة » (١٨٣ - ١٨٤) ، ولهذا فالتراث اليهودى ثقل يبرز تحته اليهودى ويتناقض مع كل ما يشعر به فى قلبه كفرد (١٨٨) ، وهو يجد نفسه مضطراً دائماً أن يضحي بنفسه من أجل الشعب « فأهدافه الشخصية تتعارض فى بعض الوجوه مع أهداف المجموع » (١٨٩) . « أن الإنسان اليهودى ... مكبوت يعيش بعباداته وقوانينه ومبادئه وأحكامه التقليدية ، وذلك لأن أشياء كثيرة خلفها له أسلافه من شأنها أن تميت الروح وتثقل على النفس حريتها » (١٩٠) .

ويتجلى هذا الموت فى أعلى صورته فى شخصية يهودى الدياسبورا الذى كان يعيش داخل جدران الجتو والذى فقد احساسه بالطبيعة وانشغل فى تصورات فكرية مجردة ، ولذا فقد أصبح شخصية هامشية شاذة غير طبيعية لا يمكنه أن يقوم إلا بأعمال فكرية مثل المحاسبة والمحاسبة . أن احتقار العمل اليدوى قوى بين اليهود لدرجة « أن أولئك الذين يقومون بهذا العمل يفعلون ذلك مضطرين وعليهم أن يهربوا منه يوماً الى حياة أفضل » (٢٥٦) .

مقابل هذا الموت الذى تفرضه الحياة والتقاليد اليهودية يطالب

الصهاينة « الطبيعيون » بمنح الفرد اليهودى الفرصة أن « يحيا » (١٨٩) وأن تصبح القومية اليهودية « قومية حياة متطورة » (١٨٤) . والعودة للطبيعة هى السبيل لحياة جديدة تختلف عن « حياة المنفى » (٢٥٩) حياة يتحول فيها اليهودى الى « كائن بشرى طبيعى ، سوى ، صادق مع نفسه » (٢٦١) . وعن طريق العمل اليدوى يمكن أن يمتلك اليهود « ثقافة خاصة » بهم ، ومن « خلال العمل فقط ، كمثل أعلى ... يستطيع اليهود أن يشفوا انفسهم من الطاعون الذى يعانون منه منذ عدة أجيال ، وأن يراؤوا الصدع بينهم وبين الطبيعة » (٢٥٨) . لا بد أن يصبح الشعب المقدس « شعبا حيا » (١٩٢) .

ان شعار العودة للطبيعة الذى تبناه بعض الصهاينة من الممكن أن يصبح بالفعل شعارا ثوريا ودعوة للحياة اذا أريد به ايقاظ الانسان وتنبيهه الى امكانياته الانسانية الكامنة ، وذلك عن طريق افتراض وجود « حياة أفضل وأكثر طبيعية » لأنها أكثر تناسبا مع امكانيات الانسان كفرد وامكانيات الجماعة الانسانية (وهذا ما فعلته البورجوازيات الأوروبية فى مرحلتها الثورية الليبرالية) . ولكن شعار العودة للطبيعة نفسه يمكن أن يتحول الى شعار رجعى غير انساني اذا ما أريد به العودة الى طبيعة مطلقة تتحدى حدود التاريخ وتلغيه ، طبيعة يمتزج بها الانسان ويفقد وعيه وكيانه الفردى ووجوده النسبى التاريخى . ويمكننا القول ان ما يحدد ثورية شعار العودة للطبيعة من رجعيته هو نوعية « الطبيعة » التى « يعود » لها الانسان : هل هى طبيعة لها وجه انساني وملامح انسانية ، أم أن وجهها مطلق جامد ؟ ولذا يجب أن نسأل عما اذا كانت الطبيعة التى يعود لها الصهاينة طبيعة حياة خصبة معطاءة ، أم انها تقع داخل الدائرة المطلقة ؟ هل هى حقا دعوة صهيونية لليهود أن يخرجوا من تحت نير مملكة السماء الى الحياة المحسوسة الطبيعية ؟ اذا كان الأمر كذلك ، فانه ولا شك أمر مثير للدهشة ، لأن الصهاينة قوم علبسو الوجه لا يتحدثون بتاتا عن اليهودى كفرد من حقه أن يحيا حياة محددة سعيدة ، بل يتحدثون عنه كبطل أو شهيد ينتمى الى ذلك الشعب المختار الذى يحمل عبء رسالته الأزلية .

اكتشف الصهاينة « الطبيعيون » ما يمكن أن نطلق عليه اصطلاح « الطبيعة اليهودية » ، فبرديشفسكى تذكر أن أسلافه المباشرين تركوا له الجثث ولكن أسلافه القدامى من الرعاة والمزارعين تركوا له أيضا « نشيد الاقشاد » ، نشيد « أمجاد الطبيعة السامية التي لا حدود لها » (١٩٠) . واكتشاف الصهاينة الطبيعيين لهذه الطبيعة القديمة مكثهم من أن يطرحوا تصورا جديدا للتاريخ اليهودى والبعث القومى الحديث ، فهم قدموا تصورا لحياة اليهود القدامى على أنهم شعب من الرعاة الغزاة يعيش فى بساطة ووثام مع الطبيعة ، ممتزجا بالأرض ، شعب عبرانى له جذور وليس شعبا هائما على وجهه متفيا (مثل يهود الدياسبورا الهامشيين) .

ويعطينا برديشفسكى فى مقاله « فى اتجاهين » صورة لاسرائيل القديمة الطبيعية التى تغنى « أغنية الكون والطبيعة » ، أغنية السماء والأرض والهها ، أغنية البحر وامتلائه ، أغنية التلال والمرتفعات ، أغنية الأشجار والأعشاب ، أغنية البحار والجداول ، وبعد ذلك جلس كل اسرائيلى تحت كرمته أو تينته ، ثم نبقت البراعم على التينة ، وامتد سحر التلال الخضراء الى البعيد ... ان تلك الأيام كانت أيام بحبوحة وجمال » (١٨٦) .

وهكذا يهرب اليهودى المتمرد الى طبيعة يهودية . ولكننا نعرف تماما أن كل ما هو يهودى تلفحه لفحة من القداسة فيفقد الحيا وقد يتسبب ثبات الأزلية ، وهذا هو الحال مع الطبيعة اليهودية فهى تقع داخل الدائرة المتجمدة . ولعل هذا يفسر السر فى وجود بعض الحاخامات « الرومانتيكيين الطبيعيين » مثل الحاخام كوك الذى يطالب اليهود بالعودة للطبيعة فى كلمات تشبه الى حد كبير كلمات المتمردين الطبيعيين من عدة وجوه : « لقد أفرنا ظهورنا عن الاهتمام بحياتنا الجسدية وعن تطوير أحاسيسنا ، كما أهملنا كل ما له علاقة ملموسة بحقيقة الجسد لأننا أصبحنا فريسة لخاوفنا ، كان ينقصنا الايمان بقدسية الأرض » . ثم يقتبس الحاخام كوك من المشناه عبارة مفادها أن الايمان يمكن أن يعبر عن نفسه عن طريق الزراعة أو العمل اليدوى « فالإنسان يمكن أن يبرهن عن ايمانه بالحياة الأزلية عن طريق الزراعة » (٣٠٥) . (وهذا يفكرنا بقول الحاخام كاليشر بأن الاستيطان فى فلسطين سيساهم فى تطبيق « الوصايا الدينية المتعلقة بالعمل فى تربة الأرض المقدسة » - [١٦]) . العودة

للطبيعة اليهودية اذن هو الطريق للحياة الازلية والدائرة المغلقة .
والطلق الذى ظهر واضحا فى الاقتباس السابق من كتابات الحاخام
كوك كان مختلفا بين ظلال الأشجار الوارفة فى كتابات الصهاينة
التمردين ، ولكنه كان هناك طيلة الوقت . ولو درسنا أجزاء
أخرى من كتاباتهم لوجدنا أن المطلق بوجهه الذى لا قسمات له
ولا ملامح يظهر بشكل مسافر ودون حياة . ففى مقال لغوردون
ب عنوان « بعض الملاحظات » يقبى الكاتب القارئ الى أن العودة
للطبيعة ليست هى العودة « للحياة العادية التى تشكل أسلوب
حياة كل الأفراد وكل الأمم » (٢٦١) فاليهود لا يتبعون بأى حال
« طريق الضرورة التاريخية » (لانهم خارج التاريخ) . ورغم أن
غوردون يتسامح قليلا ويقرر أن ثمة « عاملا تاريخيا » دخل فى
تكوين الشخصية اليهودية (٢٦٤) الا أنه يعود فيؤكد أن العنصر
الكونى الذى يمكن وصفه « بأنه مزيج من أرض الوطن القومى
الطبيعية وروح الشعب الذى توطن هذه الأرض » هو المكون
الأساسى لهذه الشخصية (٢٦٣) . و « مجنون الروح » (وهو انسان
غوردون الطبيعى الذى يعيش على الفطرة) لا يقنع بالتفكير فى
الحياة كما يفعل يهود الجتو وإنما يسعى لها ، وهو لا يبحث عن
الحياة الانسانية المحسوسة « بل عن حياة ذات أبعاد كونية ،
حياة على صورة الله ، حياة أزلية » (٢٦٨) ، حياة لا تاريخية
لا تنبض بأية حياة . ويهود الدياسبورا المساكين يحيون وجودا
تاريخيا وحسب (مثلهم مثل بقية البشر) ولكنهم عن طريق العودة
للطبيعة الفلسطينية فى أرض الميعاد ، وفى أرض الميعاد وحدها دون
سائر بقاع الأرض ، يمكنهم أن يخوضوا تجربة بعث « الجانب
الكونى » لشخصيتهم (٢٦٥) .

ولا يتفق مارتن بوبر « الانسانى العبرانى » ، كما يصف نفسه
وكما يصفه بعض دارسى فلسفته ، مع فكرة العودة للطبيعة فى
مقاله « الانسانية العبرية » حيث يقول : « صحيح أننا بحاجة
الى الحياة العادية ، ولكن ذلك ليس كافيا لنا بأى شكل من
الاشكال ، فنحن لا نستطيع الاكتفاء « بالطبيعة » **بطل الفرض**
الأساسى الازلى لوجودنا . اذا أردنا ألا نكون سوى اناس عاديين ،
سوف يتوقف وجودنا حالا » (٣٣٩) . ويخلص بوبر من ذلك
الى أنه يجب وضع « الانسانية العبرية ضد القومية اليهودية التى

تعتبر اسرائيل امة كالأمم الأخرى « (٣٣٥) ، أى أن بوبر يرفض مقياس « الطبيعة » ويرفض قيم الحياة العادية الطبيعية للحكم على اليهود واليهودية .

ولكن الفكر الانسانى الهيومانى يعادى الطبيعة لأنه يحاول أن يعلى ذات الانسان على ما عداها من الاشياء ، وهو يرفض القيم السائدة العادية ليصل الى أفق أكثر رحابة . أما بوبر فهو يحرر الانسان من الطبيعة ولكنه يطلب منه أن يسجد أمام وثن « الوجود الأزلى » ، وهو وثن يرتدى قناعا انسانيا تاريخيا ولكنه وثن لا وراء فى ذلك ، فما هو بالانسانى وما هو بالتاريخى . ورغم كل الاختلافات الفكرية بين بوبر المتصوف وغوردون الرومانتيكى العلمائى فإنه يمكننا القول أنهما يتفقان على وجود عنصر كونى أزلى فى الطبيعة اليهودية يراه بوبر متجسدا فى التاريخ اليهودى وفى القيم اليهودية (مثل اليهود القدامى المتدينين) بينما يراه غوردون متجسدا فى الطبيعة وفى أرض الميعاد (مثل بعض الصهاينة المحدثين العلمائين) . والفارق بين المفكرين طفيف ، وهو فى الواقع فارق فى التسميات ، فاليهودية كمطلق لا تختلف كثيرا عن الطبيعة كمطلق فكلاهما جامد لا يتغير وكلاهما يعلو على الانسان . وهذه حقيقة تنبه لها الحاخام الصهيونى باينس ووصفها ثور أن يبين دلالتها الأخلاقية ، فقد شبه باينس تطور اليهودية بتطور الطبيعة لأن « الجوهر يدوم » ، فى حين أن الأشكال تتغير من لحظة لأخرى « (٢٨٧) ، (ويلاحظ هنا عدم الاكتراث الهيجلى المثالى بالشكل المعين المحسوس) . ان تاريخ بوبر أو يهوديته أمر ثابت جامد يكرر نفسه فى دورات متداخلة متشابهة تماما مثل طبيعة غوردون ، وهذا التشابه ناتج عن أن بنية أفكارهما متشابهة ، وهى البنية الصهيونية التى جوهرها ذوبان الأجزاء فى الواحد ، بنية الباتنيزم لو وحدة الوجود . (انظر « ٣ — وحدة الوجود اليهودية ») .

وقد يختلف « محتوى » وحدة الوجود من مفكر صهيونى لآخر ، وقد تختلف الظواهر التى يحل فيها المطلق ولكن البنية واحدة لا تتغير وهذا هو جوهر وثنية وفاشية كل الصهاينة ابتداء من أى حاخام أرثوذكسى مرورا على بوبر الصوفى العلمائى وانتهاء بمساجنس العلمائى الروحى وديان الجنرال الملحد . وفيما يلى سنورد بعض

الانتقاسات من كتابات بعض الصهاينة لنبين مدى التطابق بين أفكارهم مكتفين بالحد الأدنى من التعليق ، ولتبدأ بمارتن بوبر :

« ان خلاصنا الوحيد هو في أن نصبح اسرائيل من جديد ، ونصبح كلا واحدا فريدا يتألف من الشعب والمجتمع الدينى ، شعب متجدد ودين متجدد تجمعهما وحدة متجددة ... ان القيم العظيمة التى أنتجناها نجمت عن قراوج الشعب والدين ، فلا نستطيع الاستعاضة عن هذا القراوج الاصلى بالجمع بين الامة والدين جمعا سطحيا مصطنعا لان ذلك يؤدى الى نضوب القيم ، ذلك ان قيم اسرائيل لا يمكن أن تولد من جديد خارج اطار هذا الاتحاد ذى الوضع الخاص » (٣٣٩) .

العناصر الواردة من ثالوث وحدة الوجود : (الشعب — الدين [الله] — ...) العناصر الخائية : (الأرض) .

ولكن فى خطاب بوبر الذى أرسله الى المهاتما غاندى يطلب منه فيه تأييد الاستيلاء الصهيونى على « الأرض » نجد أن الثالوث قد اكتمل :

« اننا لم نستطع ولا نستطيع أن نتخلى عن المطلب اليهودى فهناك شىء أسمى حتى من حياة شعبنا مرتبط بهذه الأرض ، انه عمل الشعب ورسالته المقدسة » (٣٤٠) .

(الشعب — رسالة الشعب المقدسة [الله] — الأرض) .

ان المطلق الذى يعلو على الانسان قد ربط الشعب بالأرض ربطا لا فكك للشعب منه ، وبوبر يستخدم استعارة الزواج التى استخدمها من قبل فى وصف علاقة الشعب بالدين ليصف علاقة اليهودى بالأرض :

« اننى أومن بقراوج الانسان والأرض ... ان هذه الأرض تعترف بنا لأنها بواسطتنا تصبح مثمرة » (٣٤١) .

(الشعب — ... — الأرض) (الله) .

(واستعارة الزواج تحيط بها هالة من القداسة في التراث اليهودي ، فعلاقة الله بالشعب قد وصفت في العهد القديم بأنها مثل علاقة الزواج) . ولا يختلف موقف بوبر ، رغم أنسانيته . مصطلحه الزائفة ، عن موقف الحاخام يهودا القالي Yehudah Alkalai (١٧٩٨ — ١٨٧٨) أحد رواد الفكر الصهيوني :

« نحن كشعب لا يليق بنا أن نلقب بإسرائيل (المدافعين عن الله)
إلا إذا كنا في أرض إسرائيل » (١٠)

(الشعب — الله — الأرض) .

وهذا لا يختلف كثيرا عن موقف الحاخام حايم لاندوا :

« ان روح شعبنا لا تستطيع التعبير عن نفسها الا اذا عادت الحياة القومية الى أرضنا من جديد لأن القبس الالهى لا يؤثر في شعبنا الا وهو في أرضه » (٣٠٩) .

(الشعب — الله — الأرض)

أما الحاخام الصهيوني كوك فيقول :

« ليست أرض إسرائيل شيئا منفصلا عن روح الشعب اليهودي انها جزء من جوهر وجودنا القومى ، ومرتبطة بحياتنا ذاتها وبكياننا الداخلى ارتباطا عضويا . . . ان ما تعنيه أرض إسرائيل يمكن فهمه فقط من خلال روح الرب المنتشرة في شعبنا ككل والتي تشع بتأثيرها على كل العواطف السليمة » (٢٩٤) .

(الشعب — الله — الأرض)

وأما الحاخام يهودا ليون ماجنس Yehuda Leon Magnes
(١٨٧٧ — ١٩٤٨) أول رئيس للجامعة العبرية

فيحدد القضية على النحو التالي :

« اليهودى لن يتخلى عن أرض اسرائيل ، ولن يستطيع أن يفعل ذلك [حتى لو أراد] . لقد قلت أن فلسطين قيمة بحد ذاتها ، بصخورها وتلالها وجبالها » (٣٢٤) .

(الشعب — ... الأرض) (الله)

ويقول غوردون المتمرد :

« ان البعث القومى لن يتم الا عن طريق العودة الى حقول وطننا القومى وتحت سمائه ... اننا نأتى لوطننا لنزرع فى تربتنا الطبيعية التى نزعنا منها ولنضرب جذورنا عميقة فى مصادرها الحياتية ، ولنمد فروعا بعيدا خلال هواء وطننا القومى وتحت شمس » (٣٦٥) .

(الشعب — روح الحياة [الله] — الأرض)

وليلاحظ القارئ استخدام الاستعارة العضوية التى تسوى الانسان بالطبيعة والأشياء .

وحيثما سئل وزير الدفاع الاسرائيلى عما اذا كان من المنطقى أن يكون لمطالب اسرائيل « الدينية » و « التاريخية » بخصوص بعض اجزاء الأرض المحتلة دورا فى السياسة الاسرائيلية اجاب قائلا :

« هذا هو أساس الوجود الاسرائيلى : انه واحد من العناصر الثلاثة التى تشكل اسرائيل ، وهى : الشعب اليهودى ، والكتاب المقدس ، وأرض اليهود » (١) .

ولذلك « اذا اجتمعت التوراة وأمة التوراة فلا بد وان تكون معها أيضا أرض التوراة » .

(الشعب — التوراة [الله] — الأرض)

(١) أدلى ديلان بتصريحه فى أغسطس ١٩٦٧ ونشر فى النهار ٢٨ — ٥ — ١٩٦٨ ، اسرائيل الكبرى ٦٠٤ .

وهذه الكلمات هي التي نال عليها الحاخام موسى ديان تهنة الجنرال اسحق نعيم حاخام السفارديين ، وهي كلمات لا تختلف كثيرا عن كلمات مارتن بوبر المتصوف الذي لا يقود جيشا لحسن الحظ .

ان اليهودى المتمرد يهرب الى طبيعة يهودية مقدسة مطلقة ساكنة ميثقة ، لا تفرق كثيرا عن « تاريخ » بوبر الساكن المطلق ، أى أنه غير قادر على الانفلات من الدائرة المغلقة لأنه رفض الحلول العقلانية الراديكالية ، ولذلك فحركته تظل حركة دائرية لا معنى لها : من تراث مطلق مهيت الى طبيعة مطلقة ميثقة . ولهذا السبب فالصهيونى الطبيعى المتمرد لا يختلف البتة عن الحاخام الأرثوذكسى حامل لواء التراث أو عن الجنرال مفسر اللاهوت اليهودى .

وقد تنبه الحاخام الصهيونى حايم لاندאו لهذه الحقيقة (والصهاينة المتدينون الروحانيون هم أقدر الناس على فهم بنية الفكر الصهيونى لأنه لا توجد أية غشوات ليبرالية علمانية أو اشتراكية ثورية على عيونهم) ، فبينما يرى غوردون أن العمل اليدوى هو «سمة الشعب الطبيعى» وهو سبيل « الانبعاث القومى » والحياة الحقيقية (٢٥٩) فان الحاخام لانداو يرفض هذه الاصطلاحات البريئة ويقرر «أن العمل والتوراة هما شكلان لجوهر واحد ... لا يمكن أن تولد التوراة من جديد بدون العمل وكذلك لا يمكن أن يولد العمل كقوة مبدعة فى بناء الأمة من جديد بدون التوراة التى هى جوهر الانبعاث » (٣١٣) ، ولذلك فالعمل هو الوسيلة نحو « الوجود [اليهودى] ... المنفصل » (٣١١) أى أنه ليس سوى وسيلة للبقاء بعناد وأصرار داخل الدائرة .

١١ — الانعتاق الذاتى عن طريق الاعتماد على الجويم

رفض الصهاينة التصور التقليدى لليهودى كشاهد سلبي على التاريخ ينتظر عودة المسيح المنتظر ، وآمنوا بأنه يجب على اليهودى أن يتخلى عن طفيليته وأن يلجأ الى الفعل محاولا الانعتاق من طريق الجهود الذاتية ، خاصة وان الجويم لا يمكن الاعتماد عليهم فهم أعداؤه الدائمون . يقول الحاخام القالى ان « الخلاص سيبدأ

بجهود اليهود أنفسهم ، يجب عليهم أن ينتظموا ويتحدوا ويختاروا القادة ، ويغادروا أرض المنفى » (١٢) . ويحاول الحاخام كاليشر مزاججة الرؤى المسيحية الصوفية بالبرنامج السياسي فيؤكد أن « العمل الزراعي اليهودي سيؤدي للوصول الى الخلاص » ثم يفسر هذه العبارة بقوله : « اذا ما قدمنا الخلاص للأرض بهذه الطريقة الدنيوية ، نستظهر لنا الخلاص تدريجيا » (١٧) ، أى ان أمة الكهنة يمكنها الان أن تتدخل شخصيا ومباشرة في التاريخ (نيابة عن المسيح المنتظر) لتؤسس الدولة اليهودية . و « الانتعاق الذاتى » — وهذا هو عنوان كتاب بنسكر المعروف — فكرة متسقة مع التصور الصهيونى للوجود اليهودى المنفصل ولذلك يتكرر ذكرها في الكتابات الصهيونية .

وكان احادهم يخشى أن تتحول الدولة اليهودية « المنفصلة » الى كرة تتلاعب بها الدول الكبرى ، ولكن يبدو أن الصهاينة ، دعاة الانتعاق الذاتى ، كانوا على يقين من هذه الحقيقة وحاولوا استغلالها بكل ما لديهم من حيلة . فهم لم يترددوا قط في التزلف الى كافة الاستعماريين لضمان حمايتهم للمخطط الصهيونى المقدس ، كما أنهم لم يتوانوا أبدا في المناورة لاستصدار وعد بلفور أو في الضغط على هيئة الجويميم المتحدة لاستصدار قرار بتقسيم فلسطين . وقد اكتشف هرتزل من البداية أن رؤى العهد القديم لن تتحقق الا عن طريق قوة امبريالية عظمى ، ففضى معظم حياته متنقلا من بلد استعماري الى آخر . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، قام هرتزل بالاتصال أولا بسلطان تركيا ثم بقيصر ألمانيا وبعد ذلك عرض مشكلته على ملك إيطاليا ، ثم على وزير داخلية روسيا القيصرية فياشيللاف بليفيه ، رغم أن الأخير كان مشهورا بمعاداته للسامية وكان مشهورا بأنه بطل مذابح كيшинيف .

وقد بلغ من اتفاق هرتزل مع الاستعماريين من الجويميم انه كان يتصور أن الدولة اليهودية أن هي الا تحقيق جزئى لمحاولة الرجل الأبيض اخبال حضارته الغربية على الشرق « المتخلف » ، ففى خطاب أرسله الى دوق باذن بتاريخ ١٨٩٦ قال : « اذا كانت مشيئة الله أن نعود الى أرض آبائنا التاريخية فاننا نود أن نعود كممثلين للحضارة الغربية وسندخل النظافة والنظم وعادات

الغرب الاصلية الى هذه البقعة الفاسدة من الشرق التي تقترسها
الأيثة « (١) . ورغم أن هرتزل أحيانا يقدم الرؤية الصهيونية على
أنها « عودة » لأرض الآباء وعلى أنها شيء سيقيم بمشيئة الله
ورعايته ، إلا أنه يضع شروطه ويصر على أن يعود كرجل غربي متمدين
يبني صرح الحضارة الذي يقف شامخا ضد البربرية . (وهكذا نجد
أن العناية الالهية التي كانت يسارية في يد بوروشوف أصبحت
استعمارية غربية في يد هرتزل) .

ولكن هرتزل كان يعلم تمام العلم أنه ليس سوى سمسار لا يملك
سلعة حقيقية يبيعها وأنه لا يملك سوى « خدمات » يقدمها لآسياده
من المستعمرين ، ولذا فهو يعلن دون حياء أن الحركة الصهيونية
ستحول يهود العالم (أو « أمة الروح المقدسة ») « الى عشرة
ملايين عميل » لانتجلترا اذا ما ساعدتهم الأخيرة على تحقيق الحلم
الصهيوني (٢) (لم تكن الولايات المتحدة بعد هي مركز الثقل الامبريالي
في العالم) . والدولة اليهودية التي ستضم الشعب المقدس
يمكن أن تقوم هي الأخرى بدور العميل والسمسار . وعلى سبيل
المثال ، حينما رأى هرتزل — بثاقب نظره العملى — أن شعب
مصر كان على وشك أن يثور على مستعمره ، وأن الانجليز سيحتاجون
الى قاعدة أخرى في الشرق كنتيجة لذلك ، وأن هذا الوضع سيفيد
الدولة الصهيونية كثيرا ، كتب يقول : « انه مما يفيدنا أن يضطر
الانجليز الى مغادرة مصر ، فانهم سيضطرون آنذاك أن يبحثوا عن
طريق آخر الى الهند بدلا من قناة السويس ، التي ستضيع منهم
أو على الأقل ستصبح غير مأمونة . . . آنذاك تصبح فلسطين
اليهودية الحديثة مناسبة لهم — الطريق من يافا الى الخليج
الفارسي » (٣) . وهذا التصور للدولة اليهودية لم يكن فكرة عبارة ،

(١) ثيودور هرتزل ، المنكرات الكاملة لثيودور هرتزل ترجمة هاري دون وتحريرو
رنايل بلقاي (نيويورك : هرتزل برس وتوماس بوسلوف ١٩٦٠) الجزء
الاول ٢٤٢ .

(٢) يوميات هرتزل اعداد انيس صايغ وترجمة هدا صايغ (بيروت : مركز
البحث الفلسطينية ١٩٦٨) ٢٥٠ .

(٣) نفس المرجع ٢٥ .

بل فكرة أساسية تتكرر في كتابات هرتزل (١) ، وغيره من الصهاينة ، فنجد أن بن جوريون ، وهو من كبار دعاة الانفصال اليهودي والاعتناق الذاتى ، يصرح حينما كان عضواً فى المؤتمر الصهيونى العالمى ، أن انجلترا « ستتمكن من أن تحصل على قواعد دفاعية فى البحر والبر فى الدولة اليهودية » (٢) . وقد أعطى حاييم وايزمان ، الزعيم الصهيونى وأول رئيس لدولة اسرائيل ، تأييده لفكرة الدولة اليهودية كقاعدة للانقضاء على الشرق الأوسط . فقد أخبر أحد كبار موظفى وزارة الخارجية أن « فلسطينا يهودية ستكون خير حماية لانجلترا ، خاصة بالنسبة لمصالحها فى قناة السويس (٣) » . وهو يقدم هذا العرض الجذاب حتى تساعد دول الامبريالية فى محاولته الاعتناق الذاتى !

ورؤساء وزراء اسرائيل يحجون الواحد تلو الآخر الى دول الجويم الامبريالية خاصة الولايات المتحدة حتى تبسط حمايتها التاريخية المؤقتة على امة الكهنة والمسحاء المخلصين التى تقع فى « صرة » العالم وتطل على قناة السويس ! (انظر : « ٤ » — حلول الله فى التاريخ » لتفسير هذا القلاقى بين الصهاينة والامبرياليين) .

١٢ — معاداة السامية والعناية الالهية

ان نقطة البدء الفكرية لمعاداة السامية هى الافتراض القائل بأن اليهودى ليس له وجود فردى مستقل عن أمته ، وأن اليهود كأمة يمثلون عنصراً غريباً عالمياً ليس له جذور محسوبة وليس له ولاء محدد ، وانهم لهذا السبب يمثلون خطراً حضارياً واقتصادياً على أية جماعة انسانية يعيشون فيها ، ويوجد فى الغرب تراث حضارى كامل تشكل معاداة السامية أساسه الفكرى .

(١) نفس المرجع ٦٢ — ٦٣ .

(٢) بن هرمان ، « الصهيونية والاسد » فى الصهيونية واسرائيل والعرب ٢٦

(٣) الفريد ليلنتال ثمن اسرائيل (شيكافو : هنرى ريجرى كومباني ١٩٥٢) ٢٢ .

على الرغم من ذلك آمن المسكليم أن معاداة السامية ظاهرة اجتماعية مؤقتة في طريقها الى الزوال التدريجى كنتيجة طبيعية لسيادة العقل وانتشار الاخاء والمساواة . وقد آمن المسكليم أيضا بأن الجوهر الانسانى لليهودى لا يختلف عن جوهر أى انسان ، وبهذا يكون اندماجه فى الجماعة الإنسانية شيئا ممكنا ومرغوبا فيه .

ولكن هذا التصور العقلانى لشخصية اليهودى يتعارض وبشكل حاد مع تصور الصهاينة اليهودى على أنه شخصية فريدة تقف خارج التاريخ ، ولو دققنا النظر فى الموقف الصهيونى من اليهود لوجدنا أنه يتقابل الى حد كبير مع موقف المعادين للسامية . فالصهيونية ترى اليهود على أنهم أمة واحدة رغم تشتتهم آلاف السنين فى كل أصقاع الأرض ، وأنه لا توجد أى فروق جوهرية بين اليهودى الأمريكى و « أخيه » الحبشى ، والفكر الصهيونى بهذا يلغى فردية اليهودى ويجرده من إنسانيته المحسوسة ، ويقسم العالم الى الدائرة اليهودية المغلقة والجوييم ، وهذا هو جوهر معاداة السامية .

واليهودى على حد قول بوير شخصية « فريدة » لا يمكن فهمها ولا يمكن استيعابها ، ولذا لا يمكن اندماجها مع بقية الأمم (٣٣٠) . والإيمان باستحالة الاندماج الكامل هو من المبادئ الرئيسية للصهيونية كما يقول كلا تركين (٢٠٥) ، بل أنه يعد الاندماج « جريمة وخطيئة وعارا » يحط من كرامة اليهود « الإنسانية الفردية » (٢١١) . أما نحن من سركين فيعبر عن شديد ثقته من أن البروليتاريا اليهودية مستقاوم « سم الاندماج » الذى تسرب اليها (٢٣٠) . ويعتقد موسى هس أنه لا يمكن لليهودى أن يفر من تميزه وانتمائه للشعب المختار المضطهد : « يخبئ هؤلاء اليهود العصريون [المندمجون] من مسرح جريمتهم وراء مواقعهم الجغرافية أو وراء آرائهم الفلسفية عبثا ... قد تقنع نفسك تحت ألف قناع وقد تغير اسمك ودينك وطباعك وقد تسافر حول العالم متخفيا وذلك لكى لا يكشف الناس أنك يهودى ، لكن أية اهانة موجهة للاسم اليهودى ستؤلك بحدة تفوق ايلاهما ذلك الرجل المخلص ليهوديته والمدافع عن شرف الاسم اليهودى » (٢٤) . وحتى لو أراد اليهود الاندماج ، فإن هذا الأمر — حسب التصور الصهيونى — مستحيل

لان الجوييم يقفون بالمرصاد ، « رعاعهم المتوحشون يقفون كالنئاب
التي تبحث عن فريستها » (كما يقول سمولنسكين) (٤٧) .
والشعب اليهودي ضحية عنف الجوييم يعيش « كقطيع أو كجماعة
من العبيد ... هدف كل سوط ... قطيع يرفض الناس أن يدخلوه
حتى الى الاصطبل » (٣٤٦) على حد قول برنارد لازار Bernard
Lazare (١٨٦٥ - ١٩٠٣) الكاتب الفرنسى الصهيونى .

وسبب هذه الظاهرة ان معاداة السامية لها وجود ميتافيزيقى
ثابت ازلى ، فيهودية اليهود « مثل ختم قاين على جباههم ، انها
العلامة الابدية التي كان ينفر منها غير اليهود والتي كانت سبب
تعاسة لليهود انفسهم » (٨٣) . ان موقف الجوييم من اليهود
— حسب تصور بنسكر — يتسم بكره « افلاطونى » زادت الف
سنة من حدته فأصبح معها « مرضا مستعصيا » (٨٤) .

ووصف معاداة السامية بأنها مطلق « افلاطونى » و « مرض
مستعصى » هو وصف يلغى الوعى الانسانى الأخلاقى وينفى مقدرة
الانسان على التحكم فى مصيره وفى بيئته وذاته . ان المرض الاخلاقى
نقاج الاختيار الانسانى يتحول الى مرض بيولوجى يصيب المرء
الذى لا حول له ولا قوة ولا ارادة ، كما تتحول الظاهرة التاريخية
نقاج الممارسة الانسانية الى مطلق افلاطونى ثابت لا يتغير .
والافتراض المستتر هنا هو ان قوانين الطبيعة تنطبق على الامور
الانسانية الاخلاقية ، وهذا افتراض داروينى مسطح يفكرنا بمفهوم
هس للتاريخ وبالرؤية النازية ، كما أنه على المستوى الفلسفى فيه
لمسة من وحدة الوجود التي تعادل بين الانسان والاشياء والطبيعة .
نفس هذه القدرية والحتمية توجد فى وصف وايزمان لمعاداة السامية
بأنها مثل البكتريا التي تكون سالكة أحيانا ، ولكن حينما تسنح
لها الفرصة فاتها تعود للحياة . وهذه الرؤية المنحطة للنفس
البشرية تفترض ان كل الجوييم مصابون بهذا النوع من البكتريا
الأخلاقية . ويخبرنا كروسمان الزعيم العمالى البريطانى الصهيونى
بأن وايزمان أصبح صديقه الحميم حينما اعترف له كروسمان بأنه
« بالطبع معاد للسامية » . لو قال كروسمان غير هذا فانه من
وجهة نظر وايزمان القدرية « الكيمائية » يكون اما كاذبا على

نفسه أو على الآخرين » (١) . ولأن معاداة السامية ظاهرة لها ثبات المثل الافلاطونية وسمديتها فهي تنتشر كالأوبئة التي لا تتغير طبيعتها بمرور الزمن ، غالبكترها هي البكتريا والطاعون هو الطاعون في كل زمان ومكان . ولهذا السبب لا يميز الصهاينة بين معاداة السامية الدينية التي وجدت في بعض أجزاء أوروبا في العصور الوسطى ومعاداة السامية العنصرية التي تستند الى النظريات العنصرية الحديثة . بل انهم يصفون معاداة العرب للغزو الصهيوني بأنها معاداة للسامية ، وكذا مكافحة الحكومة السوفيتية للاتجاهات البورجوازية الصهيونية بين صفوف اليهود السوفيت . اذا كانت ذات اليهودى مطلقة فعداوة الجوييم له ، بغض النظر عن ظروفها التاريخية وأصولها الحضارية وأسبابها السياسية ، لا بد أن تكون هي الأخرى مطلقة . والقصة التي يرويها الحاخام سولومن شختر في مطلع مقاله عن الصهيونية هي خير مثال على التصور الصهيوني للاتاريخى لمعاداة السامية . ويطل القصة يهودى المانى من الجيل القديم ، جاءه أصدقائه في بداية ثمانينات القرن الماضى وسألوه عن رأيه في الهجمات الجديدة على اليهود ، فأجاب بكل دهشة : « أنها ليست بجديدة ، انها الهجمات القديمة نفسها » (٣٧٤) .

وقد يصبح الفكر الصهيونى أكثر حنكة في موقفه من عالم الجوييم الا أن رؤيته تظل أولا وأخيرا هي نفسها الرؤية القديمة المطلقة : الحمل اليهودى بين ثواب الجوييم (١٦٢) . وتقسيم عالم الجوييم الذى توصل له المؤتمر الصهيونى الأخير ان هو الا محاولة لاضفاء غلالة من العلمية والعلمانية على موقف هو في صميمه صوفى ولا تاريخى . فقد قسم المؤتمرون دول العالم من وجهة نظر أوضاع اليهود فيها الى ثلاثة أنواع :

أولا : دول الاضطهاد والضييق (الاتحاد السوفيتى والدول العربية بطبيعة الحال) ، ولا حل للمشكلة اليهودية في هذه البلدان الا عن طريق الهجرة الفورية .

(١) رولاند يونتشنى ، «الجيو الآخر : وجهة نظر ليبرالية في الصهيونية وامثرائيل» ، محاضرة أقيمت في ندوة فلسطين الدولية في القاهرة ٢٠ مارس - ٥ أبريل ١٩٦٥ .

ثانيا : دول مثل دول أمريكا اللاتينية تقف على عتبة تغيرات سياسية ستؤدي في نهاية الأمر الى خلق ظروف غير مواتية لليهود، وحل المشكلة يكون باقناع اليهود بالهجرة .

ثالثا : دول العالم الحر التي لا يمكن اقناع اليهود بالهجرة منها (وهذا وضع يقبله بعض الصهاينة صاغرين ، وان كان بعضهم مثل بن جوريون يكافح ضده بكل صلابة) . وحل مشكلة اليهود في هذه البلاد يكون عن طريق استمرار الكيان اليهودي فيها . ولا نعلم ان تجد بعض الصهاينة الذين يساؤون بين هذه الدول الحرة ودول القسم الثاني بمعنى أنهم يرون أن دول القسم الثالث تتهددها هي الأخرى الفاشية ومعداة السامية . بل أن الصهيونيين الاشتراكيين يروون أن الذئاب الامبريالية تعد أفران الغاز ومعسكرات الاعتقال للحملاان اليهودية الأمريكية !

ولكن سواء كانت المخاوف الصهيونية بخصوص اليهود السوفييت تأخذ طابعا ليبراليا ، بينما تأخذ هذه المخاوف بالنسبة ليهود أمريكا طابعا اشتراكيا فإنه يجب أن نتذكر أن الوجدان الصهيوني الهيجلي يساوي في نهاية الأمر بين « تدمير » اليهود عن طريق معاداة السامية (في دول الضيق رأسمالية كانت أم اشتراكية) واذابتهم عن طريق الانعتاق (في دول الانعتاق رأسمالية كانت أم اشتراكية أيضا) . فالتصفية والاندماج من وجهة النظر الصهيونية المجردة متعادلان اذ انهما سيؤديان في نهاية الأمر الى نفس الشيء : اختفاء الكيان اليهودي الفريد . وتتضح هذه الفكرة في مقال الصحفي والزعيم العمالي الصهيوني بيرل كاتزنيلسون Berl Katzenelson (١٨٨٧ — ١٩٤٤) المعنون « الثورة والتقاليد » حيث يقول : « ما دامت اسرائيل مشتقة وتعيش فريسة للاضطهاد والحقـد والاحتكار وتغيير الدين قسرا ... ومادام بعضنا يمارس الانعتاق الذي يصلون اليه عن طريق اندماجهم كما في فرنسا الرأسمالية وروسيا الشيوعية ، فاني لن انسى ولن أستطيع ان انسى يوم مصرنا المخيف ، يوم دمارنا » (٢٧٧). وكلمة الدمار هنا تشير الى اقتراض اليهود على ايدي الجوييم والى اندماجهم اما بالطرق الليبرالية الفرنسية العنوية او الطرق الشيوعية الموجهة . أي أن

هيجيلية كاتر نيلسون وصلت الى درجة جعلت كل التفاصيل التاريخية المختلفة لا معنى ولا دلالة خاصة لها لأنها متشابهة ، وتؤدي في نهاية الأمر الى نفس الشيء .

ولكن التفكير الصهيونى يتسم بعلاقة حب وكره لليهودية ، وبطبيعة الحال يتضح هذا في الموقف الصهيونى من اليهودى . فعلى الرغم من تقديس الصهيونية لليهود واليهودية ، نجد أنها تنتقد الشخصية اليهودية مستخدمة اصطلاحات تراث معاداة السامية فى الغرب . وهذا الموقف من اليهودى يتسق منطقيا مع موقف الصهيونية من التراث اليهودى . فان كان تراث اليهودية فى المنفى منحطا ، فاليهودى هو خالق هذا التراث ونتاجه . وبالفعل فأننا نجد اشارات عديدة فى الكتابات الصهيونية الى شخصية اليهودى « المريضة » (كما يقول برنر) ، بل انه ليذهب أبعد من هذا ليقول : « ان مهمتنا الآن هى فى أن نعترف بوضاعتنا منذ بدء التاريخ حتى يومنا هذا ، ويكل نقائص شخصيتنا » (٢٠٠) . فاليهود يودون الحياة حتى « كالنمل أو الكلاب » (١٩٥) وفى رواية أخرى لنفس الكاتب « كالكلاب والمرايين » (١٩٦) ، شعب لا يعرف أفراد « سوى الاثنين والاختفاء حتى تهدا العاصفة ، يدير ظهره لأخوانه الفقراء ، ويكدس دراهمه ، ويتجول بين الجويم ليؤمن معيشته بينهم ، ثم يقضى نهاره يشكو من سوء معاملتهم له » (١٩٥) . ان نمو اليهودى شاذ غير طبيعى بسبب ملاحظته أمور الدنيا ، ولأنه يحيا حياته فى السوق متبعا « قيم هذا المكان وحدها » (٢٥٩) ، يعتقد « الصفقات التجارية التى تتم بمهارة » (٢٦٢) . ان اليهودى ، كما يرى غوردون ، « شخص غير طبيعى » ناقص ، منقسم على نفسه (٢٦١) ، ويهود الدياسبورا « شعب نصف ميت » مصاب بطاعون التجول (١٩٧) على حد قول برنر ، أما كلاتركين فيتحدث عن « شعب شوه جسده وروحه تشويها مرعبا » (٢٠٨) . ويصف هس اليهودى بأنه انسان « له أنف يهودية لا يمكن استصلاحها ، وشعره أسود متموج لا يمكن تحويله الى شعر أشقر أملس » (٢٣) (ولكنى أعرف يهودا شقرا فى الولايات المتحدة لهم أنوف بروتستانتية صغيرة مستقيمة ، أنوف هى ولائك نتاج مجتمع الجويم الامبريالى) . وفى مذكرات اسرائيل سنجر الكاتب البولندى الصهيونى نجد

اشارات لليهود «المحدوبين» الذين يعيشون في القانورات (١) ،
أما نوردو فقد وصف اليهود بأنهم مترهلو العضلات .

والصورة التي يرسمها الصهاينة لليهودى على أنه شاذ وتاجر
طفيلى هامشى لا جذور له ، مشوه الجسد والروح ، محدوب
الظهر ، مترهل العضلات أنفه كبير مضحك وشعره أسود مجعد ،
شبح ميت يسير بين الأحياء — هذه الصورة تطابق تلك التي
يرسمها فلكلور معاداة السامية لليهودى . ويبدو أن نقد الصهاينة
ليهود الدياسبورا ينطلق من الاتهامات العنصرية التي واجهوها
هم كيهود في حياتهم اليومية . وقد لاحظ المفكر اليهودى كاوفمان
الذى رفض الصهيونية بعد انخراطه في سلكها بعض الوقت ،
هذا التطابق بين موقف المعادين للسامية والصهاينة . فقد لاحظ
أن الكتب التي يدرسها التلاميذ اليهود في المدارس العبرية في
فلسطين تتضمن مثل هذه العبارات : « أن اليهود في المنفى
يعيشون حولهم هم الذين يعيشون حياة صحية ... أن اليهود أن
وأحيانا من الداخل ... أخلاقهم ناقصة ... أن غير اليهود الذين
يعيشون حولهم هم الذين يعيشون حياة صحية .. أن اليهود أن
هم إلا شعب من التجار وأصحاب البنوك والسماسرة » . وقد رد
أحد الصهاينة ويدعى يافنيل على اتهام كاوفمان قائلا : « نعم أن
اليهود بالفعل شعب طفيلى » . وقد سمى يافنيل نفسه صهيونيا
معاديا للسامية ، ثم أضاف قائلا : « كيف يقتنى لاي صهيونى إلا
يتخذ نفس الموقف ؟ »

أن معاداة السامية إذن شيء منطقي حتمى ، بل إنها من وجهة
نظر يافنيل خير خالص لأنها ستساعد على تحقيق هذا المثال
الأزلى ، هجرة اليهود من الدياسبورا وانتهاء حياة الشتات وتحقيق
العودة : « أن الهسكله (بانتقادها لشخصية اليهودى) قد ضاعفت
من حدة معاداة السامية بين الشعوب غير اليهودية . إذا كان الأمر
كذلك ، فمعاداة السامية إذن مرسله من لدن اله إسرائيل ، حيث

(١) مايكل سلزر ، تحول الدولة الصهيونية الى دولة آرية (نيويورك : بلاك
ستار بوك ١٩٦٧) ٣٥ .

ان الهسكلاه هي التي فتحت الباب لعملية البعث اليهودي « (١) » .
وهكذا دخلت معاداة السامية الدائرة اليهودية ولفحتها لفحة
من القداسة .

١٣ — العنف

كما بينا من قبل تمرد الصهاينة على سلبية التراث اليهودي وعلى
عدم أكثرات اليهود بما يحق بهم من كوارث . ولذلك نادوا بأن يتمرد
اليهودي على وضعه والا ينتظر وصول « المسيح المنتظر » الذي
سيأتي بالخلاص ، بل ينبغي أن يعمل هو — بكل ما لديه من
وسائل — على العودة الى أرض الميعاد عن طريق السلب والنهب
والعنف العلماني . ولهذا السبب حاول الصهاينة احياء تقاليد
العنف الجسدي بين اليهود لأن سنين النفي الطويلة كانت قد قضت
عليه (أقول العنف الجسدي لأن العنف الفكري في التراث اليهودي
لم يهن ولم يضعف طوال سنين النفي ، بل أن الجتو زاد من
ضراوته وشدته) .

يقول ماكس نورديو أن اليهودي فقد كل عضلاته اليهودية خلال
ثمانية عشر قرنا من النفي أصبح فيها مترهل العضلات ، ولذلك
اقترح نورديو أن يقطع اليهودي عن قهر جسده وأن يعمل على تنمية
قواه الجسدية وعضلاته أسوة « بذلك البطل باركوخبا آخر تجسيد
على صعيد التاريخ العالمي لتلك اليهودية في صلابه عودها المقاتل
وحبها لتعقعة السلاح » (٢) .

وقد أعاد الصهاينة كتابة التاريخ اليهودي مؤكدين جوانب
العنف فيه ، وصوروا الأمة اليهودية في نشأتها على أنها جماعة
محاربة من الرعاة الوثنيين الغزاة ، فبرديشفسكى على سبيل
المثال ينظر الى الوراثة الى الابلام التي كانت فيها « رايات اليهود
مرتفعة » ، وينظر الى « الأبطال والمحاربين [اليهود] الاوائل »

(١) مايكل سلاز « يهودية الصهيونية » مجلة آشسوز (يونيو ١٩٦٨)

١٤ — ٢٢ .

(٢) اسرائيل الكبري ١٣٣ — ١٣٤ .

(١٨٢) ، كما أنه يكتشف أن ثمة تيار عسكرى يسرى في التراث اليهودى ، فالحاجام اليعازر قد بين أن « السيف والقوس هما زينة الإنسان » ولذا فمسموح أن يظهر الإنسان بهما يوم السبت (١٨٦) . وأعطى الصهاينة دلالة خاصة لحادثة ماسادا التى فضل فيها المحاربون اليهود الانتحار على الاستسلام للغزاة (وحادثة ماسادا رمز الدائرة المنغلقة على نفسها ، تسيطر على الوجدان الشعبى الاسرائيلى ، ويتكرر ذكرها في الصحف والمجلات الاسرائيلية والصهيونية) . هذه الرؤية للتاريخ تتضح في خطاب جابوتنسكى لبعض الطلاب اليهود في فينا حيث أوصاهم بالاحتفاظ بالسيف « لأن الاقتتال بالسيف ليس ابتكارا ألمانيا بل انه ملك لأجدادنا الأوائل .. **أن التوراة والسيف أنزلا علينا من السماء** » (١) ، (وتصور جابوتنسكى للسيف المرسل من السماء هو امتداد للتصور اليهودى القديم للنبي الغازى الذى أبرزته المقدسات القومية) . وقد تبع مناحم بيجين أساتذه جابوتنسكى في تأكيده أهمية العنف في التاريخ أذ يقول : « أن قوة التقدم في تاريخ العالم ليست السلام بل السيف » (١) . ويبدو أن هذا الضرب من التقدم قد وصل ذروته في الدولة اليهودية لأن موسى ديان يرى اسرائيل مرتكزة على السيف : « هذا هو قدر جيلنا ، وخيار حياتنا ، أن نكون مستعدين ومسلحين ، أقوياء غلطاء ، والا سوف يسقط السيف من قبضتنا ، وحينئذ تنتزع حياتنا » (من الخطاب الذى ألقاه في جنازة روى روتنبرج ، وليلاحظ القارئ قدريه ديان وبقية الصهاينة وهى قدريه متسقة منطقيا مع عدم إيمانهم بمقدرة العقل على تشكيل الواقع) .

ويبدو أن السيف ، رمز الذكورة والقوة والعنف ، كان محبوبا وأثرا لدى الصهاينة وقد لاحظنا أن بيجين حول السيف الى محرك للتاريخ (وهذه هى مهمة الله حسب التصور اليهودى القديم) أى أن السيف يكاد يكون هو المطلق أصل الكون وكل الظواهر .

(١) لطفى العابد ، العنف والسلام في اسرائيل ، دراسة في الاستراتيجية الصهيونية (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الأبحاث ١٩٦٧) ١١ .

(٢) بريارة حداد ، « فلاديمير جابوتنسكى » ، شؤون فلسطينية (تشرين ١٩٧١) ٧٩ - ٩١ .

ولا يتردد بيرديشفسكى (الذى تأثر بنيتشه وفكرة السوبرمان) من أن يصرح بما هو مستتر في كلمات بيجين . رفض بيرديشفسكى التاريخ اليهودى الذى يسيطر عليه الحاخامات والمفكرون اليهود وأخلاقيات العبيد ، ونادى بتفضيل الفعل على الفكر وأخلاق السادة على أخلاق العبيد ، والسيف على الكتاب : « الكتاب ليس أكثر من ظل للحياة ، هو الحياة فى شيخوختها ... السيف ليس شيئاً مجرداً يقف بعيداً عن الحياة أنه تجسيد للحياة فى أعرض خطوطها وهو تجسيد جوهري ومحسوس يشبه الحياة الى حد كبير » (١٨٥) . ولكن التناقض الذى يتوهم بيرديشفسكى وجوده بين السيف لليهودى والكتاب اليهودى هو فى الواقع مثل توهم بوهر وجود تناقض بين الطبيعة اليهودية والتاريخ اليهودى ، فالتبيعة اليهودية مثل التاريخ اليهودى مطلق ، والسيف مقدس مثل الكتاب فكلاهما كما بين جابوتنسكى وبعض الحكماء اليهود القدامى مرسل من السماء) .

وحتى برانديز الليبرالى الأمريكى الهادىء يقتبس باستحسان شديد هذه الكلمات التى تصف العنف الصهيونى الذى كان لا يزال فى نشأته : « غرست الصهيونية فى الشباب اليهودى الشجاعة فألفوا الجمعيات وتدريبوا على الأعمال الرياضية وعلى اللعب بالسيف وصارت الاهانة ترد باهانة مثلها ، وفى الوقت الحاضر يجد أفضل لاعبى السيف الالمان ان الطلبة الصهيونيين يستطيعون ان يدموا الخدود ، كما يفعل التوتونيون ، وأن اليهود سوف يكونون أفضل لاعبى سيف فى الجامعة » (٢٩٢) . وبرانديز مثل كاتب هذه الكلمات يفكر فى الطالب الأرى (وحش نيتشه الأشقر) حينما يتحدث عن بطله اليهودى ، وجابوتنسكى هو الآخر كان يفكر فى السيف الالماني — البروسى اللامع . ويبدو أن هذا السيف كان محط إعجاب كل الصهاينة الذين كثيراً ما عبروا عن إعجابهم وانبهارهم بالعسكرية البروسية الرائعة . وكتابات هرتزل مليئة بعبارات الإعجاب بهذا السيف كما أن ناحوم جولدمان قد تغنى بهذه الروح العسكرية البروسية فى شبابه : « حيث ان المانيا تجسد مبدأ التقدم ، نجدها واثقة من النصر . المانيا مستتصر وستحكم الروح العسكرية العالم ، ومن يشأ أن يحزن لظهور هذه الحقيقة ويعبر عن حزنه فله أن يفعل ، ولكن محاولة اعاقه هذه الحقيقة

هو شيء من قبيل العناد وجريمة ضد عبقرية التاريخ « (١) الذي تحركه السيوف ومقعقة السلاح . (ولكن موقف الصهاينة قد تغير بعض الشيء حينما هوى هذا السيف البروسي المقيت على الرقاب اليهودية في اشويتز ومعسكرات الاعتقال الأخرى) .

ورؤيتنا للتاريخ — كما بينت من قبل — هي في الواقع برنامجنا السياسي ، وحيث أن الصهاينة اكدوا أهمية السيف والعنف كمحرك للتاريخ فانه من المتوقع أن يكون العنف جزءا أساسيا من برنامجهم السياسي . والصهاينة كانوا منطقيين مع أنفسهم لأنه كي تتحول أسطورة « العودة » الى حقيقة واقعة كان يلزم الحد الأقصى من العنف ، فالتصور الأسطوري لفلسطين كبقعة من الأرض تنتظر عودة « ساكنيها الأصليين » واليهود كشعب هائم طفيلي حزين يتفكر الأرض بوله ، هذا التصور لم يكن من الممكن تحويله الى واقع دون اللجوء للعنف ضد الفلسطينيين في أرض الميعاد وضد اليهود في المنفى . و « تغريخ » فلسطين من العرب فكرة وافق عليها كل المفكرين الصهيونيين سواء كانوا ليبراليين مثل هرتزل أم ارهابيين مثل جابوتنسكى . وقد سيطرت فكرة العنف منذ البداية على وجدان الحالوتسيم أو الرواد الأول الذين « اكتشفوا » فلسطين . فالرائد لم يكن فلاحا وحسب بل كان أيضا الشومير — الحارس الذي يدافع عن الأرض التي سرقها . وحيث أن الارهاب كان سلاحا أساسيا ومباشرا « لتحرير الأرض » من السكان الأصليين ، كان من الضروري تأسيس منظمات لها طابع مزدوج زراعى عسكري ، حتى تترجم الرؤية الصهيونية نفسها الى واقع .

والعقلية التي تسيطر على اسرائيل هي عقلية العنف ، فهي عقلية تؤمن بأن « قوة الردع المسلحة » والتكنولوجيا الاسرائيلية هما وحدهما القادران على التحدث للعرب (٢) . والعنصرية الاسرائيلية الموجهة ضد عرب فلسطين هي ترجمة يومية لهذا العنف الذي

(١) اقتبسها ميرون جيفزنى في « عرض لمسة حياة نلغوم جولدمان الذاتية ، ستون سنة من الحياة اليهودية » ، الجهورزالميم بوست ١٧ أبريل ١٩٧٠ .

(٢) يورى افنيرى ، « حرب بين اخوة سلبيين » في الفكر الصهيونى المعاصر (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ١٩٦٨) ٢٥١ .

يمارسه الشعب الاسرائيلي ككل في حياته اليومية (واعتقد ان الانفاضة في هذا الموضوع سيكون حديثا معادا لان العالم كله الان على بينة من حقيقة العنف الاسرائيلي ، فضلا عن ان مناقشة الممارسة الاسرائيلية اليومية تقع خارج نطاق هذه الدراسة) .

بل ان العنف ليمتد ليشمل يهود الدياسبورا الذين يحترقهم الصهاينة ايما احتقار لرضاهم بوضعهم التاريخي (بالمعنى المألوف للكلمة وليس بالمعنى الصهيوني) . ويأخذ هذا العنف اشكالا عدة ، فهناك الارهاب الفكري ضد كل من يرفع صوته ضد الصهيونية ، وهناك ايضا محاولة تقديم الصهيونية على انها التعبير الحقيقي والوحيد عن اليهودية .

ولكن الامر يذهب الى ما هو ابعد من ذلك ، ففي اثناء الارهاب النازي ضد اليهود اكتشف الصهاينة ان ثمة تناقضا عميقا بين مصالح الصهيونية كحركة تحاول انشاء الدولة اليهودية وبين النزعات الانسانية التي تسعى لانقاذ اليهود كبشر (وليس كتجمع قومي) . وقد عبر بن جوريون عن هذه الحقيقة في رسالة بعث بها الى اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية في ١٧ ديسمبر ١٩٢٨ حيث قال : « انه اذا طغت الشفقة على نفوس اليهود واتجهت كل طاقاتهم نحو انقاذ اليهود من مختلف البلدان ، لن يؤدي ذلك الا الى تلاشي نفوذ الصهيونية ... اذا سمحنا لمشكلة اللاجئين اليهود بأن تنفصل عن ... هدف اقامة الدولة اليهودية نكون قد عرضنا وجود الصهيونية نفسه للزوال » (١) ، اي انه كان على الصهيونية الاختيار بين الانسان اليهودي والمثال الصهيوني وهي لم تتردد في اختيار الأخير (ولهذا لم يقم الصهاينة بأي مجهود لمساعدة اليهود بل ركزوا كل جهودهم على تشجيع الهجرة الى ارض الميعاد) .

والصهيونية في اختيارها كشفت عن ولائها للأفكار والمثاليات غير التاريخية وهذا هو سر اعجاب ايخمان بالصهيونية . فهو على حد قوله كان مثاليا والمثالي ليس هو الانسان الذي يؤمن بفكرته

(١) ليلى سليم القاضى ، المنظمة الاشتراكية الاسرائيلية ، مانتسبن (بيروت : منظمة التحرير الفلسطينية ، مركز الابحاث ١٩٧١) ص ٥٥ .

وحسب ، بل هو الرجل الذى يعيش من أجلها ولذلك فهو على استعداد للتضحية بكل شيء بل وبالجميع من أجل تحقيقها (١) . هذه المثالية هي التي جعلته يكره اليهود الارثوذكس (الذين يقبلون واقع الجتو المتخلف دون تساؤل) كما كان يكره اليهود المندمجين (الذين يحاولون تحسين أوضاعهم عن طريق قبول واقعهم التاريخي الجديد) . ولعله مما يجدر ذكره هنا أن العدو الرسمي للدولة النازية لم يكن الصهاينة وإنما جماعة يهودية يدل اسمها على اتجاهها الاصلاحى « الجماعة المركزية للمواطنين اليهود من اتباع العقيدة اليهودية » (٢) . كان الهدف الاساسى لهذه الجماعة هو محاربة معاداة السامية وبالتالي الدولة النازية ، أما الصهاينة فلم يكن هدفهم محاربة معاداة السامية من قريب أو بعيد (لأنهم يرفضون وجود اليهود بين الجوييم أساسا) ، وإنما كان الهدف الصهيونى هو ترحيل أكبر عدد ممكن من اليهود لتحقيق المثل القومية — الأمر الذى يتفق تماما مع الأهداف النازية .

كان ايخمان اذن يفضل التعاون مع الصهاينة لمثاليتهم وقوميتهم (٣) (وكم كان شديد الإعجاب بهذا الطراز الجديد من اليهود) ، وحينما تولى مسئولية الاشراف على اليهود اوصاه رئيسه بقراءة انجيل الصهيونية كتاب هرتزل **الدولة اليهودية** ، وفور انتهائه من قراءة الكتاب أصبح ايخمان — على حد قوله — صهيونيا يطالب بوضع « شيء من الأرض الراسخة تحت أقدام اليهود » (٤) . « شيء من الأرض الراسخة بلا شعب ، لشعب بلا شيء من الأرض الراسخة » ! (وقد بلغ من إعجاب ايخمان بهرتزل أنه عبر عن استيائه الشديد من الذين دنسوا مقبرته وشوهوها) (٥) .

ولم يكن ايخمان صهيونيا فكريا وحسب (مثل بعض الصهاينة الأمريكيين المترفين) ، بل كان صهيونيا حقيقيا وفعالا على استعداد للعمل من أجل تحويل العودة الى حقيقة وواقع . وقد دعاه بعض

(١) ايخمان في أورشليم ٤٢ .

(٢) نفس المرجع ٥٦ .

(٣) نفس المرجع ٥٧ .

(٤) نفس المرجع ٤١ .

(٥) نفس الصفحة .

الصهاينة لزيارة الكيبوتزات في فلسطين محاولين بذلك كسبه لصفهم ، وبالفعل وصل الى حيفا ولكن السلطات الانجليزية رحلته على الفور (١). وقد ساعد ايخمان الصهاينة على تأسيس معسكرات تدريبية للمهاجرين اليهود ، بل انه طرد مرة مجموعة من الراهبات من ديرهن حتى يزود بعض الشباب اليهود بمزرعة يتدربون فيها (٢). كما ان ايخمان عقد صفقة مع واحد من أكثر اليهود مثالية - رودولف كاستنر - الصهيوني المجري ، وبموجب هذه الصفقة وافق ايخمان على السماح بترحيل بضعة آلاف من اليهود الى فلسطين بصفة غير قانونية (يهود « من أفضل المواد البيولوجية » حسب تعبيره ، مواد ظهر فيما بعد انها صهيونية) في مقابل أن تتم عملية شحن يهود المجر في نظام الى ألمانيا ، وفي مقابل أن يسود الهدوء معسكرات الاعتقال (٣). (وثمة نظرية تقول أنه كان من المستحيل على النازي شحن هذه الآلاف المؤلفة من اليهود دون تعاون القيادات اليهودية نفسها) . لكل هذه الاسباب لم يتردد ايخمان في أن يسمى نفسه « صهيونيا » أثناء محاكمته في تل أبيب .

ويأخذ العنف الصهيوني ضد يهود الدياسبورا أحيانا شكل العدوان المباشر ، فقد اثبتت التحقيقات أن حوادث الإرهاب ضد يهود العراق عام ١٩٥١ (والتي تسببت في تشتيت أقدام جماعة يهودية في العالم) قام بها دعاة الصهيونية بينهم ؛ لقد كانت قتال الصهاينة تقع في بغداد لحمل اليهود على الهرب الى فلسطين ، بينما كانت رشاشاتهم ترهب عرب فلسطين للهرب منها ، وذلك حتى تكتمل دائرة وحدة الوجود اليهودية ويعود شعب التوراة لأرض التوراة ليعيش متركزا حول التوراة .

ولا تزال الصهيونية واعية بالتناقض بين مصالحها ومصالح يهود الدياسبورا، فحينما حاول أحد أعضاء الكونجرس الأمريكي المساهمة

(١) نفس المرجع ٦٢ .

(٢) نفس المرجع ٦٠ - ٦١ .

(٣) نفس المرجع ٤٢ .

في « حل مشكلة » اليهود السوفيت وفي « التخفيف » عنهم بفتح باب الهجرة امامهم ، لم يؤيد الصهاينة مساعيهم ، ولم يقدر لمشروعهم الحياة . ولا أدري أن كان عضو الكونجرس هذا سائجا لدرجة البلاهة ، أم ماكرا الى أبعد الحدود ؟ هل كان بالفعل يريد « انقاذ » اليهود السوفيت أم « احراج » الصهاينة ؟

ولكن العنف بالنسبة للصهاينة ليس وسيلة فحسب ، بل هو غاية في حد ذاته . فاليهودي كأئسان — حسب التصور الصهيوني — يحتاج لممارسة العنف لتحرير نفسه من نفسه ومن ذاته الطينيلية الهامشية . كان بن هخت الكاتب اليهودي يشعر بعيد في قرارة نفسه في كل مرة يقتل فيها جندي بريطاني ، لأنه ولاشك كان يتحرر من مخاوفه ويولد من جديد — تماما مثل شارلوت كورداي في قصيدة جابوتنسكي المعنونة « شارلوت المسكينة » . فشارلوت تتخلص من رتابة حياتها وسخافتها وتروى تعطشها للعمل البطولي بأن تقوم « بالفعل » : تسدد الضربة الى جان مارا فتربيده قتيلا وهو في الحمام (١) . العنف هنا يصبح مثل الطقوس الدينية التي تستخدمها بغض القبائل البدائية حينما يصل أحد أفرادها سن الرجولة (فاليهودي حينما يقوم بهذا الفعل الذي كان يخاف منه أجداده ، تبح أحد أفراد الجوييم ، يتخلص من مخاوفه ويصبح جديرا بحمل رمز الذكورة) . وهذا الجانب من الفكر الصهيوني يتضح في كتاب الثورة الذي كتبه مناحم بيجين زعيم حزب حירות الاسرائيلي . يقول فيلسوف العنف :

« انا احارب ، اذن انا موجود .

« من الدم والنار والدموع والرماد سيخرج نموذج جديد من الرجال ، نموذج غير معروف البتة للعالم في الالف وثمانمائة سنة الماضية : اليهودي احارب أولا وقبل كل شيء ، يجب أن نقوم بالهجوم : نهاجم القتل .

« بالدم والعرق سينشأ جيل متكبر كريم قوى » (٢) .

(١) اسرائيل الكبرى ١٧٢ .

(٢) تدهور اليهودية ١٠٠ .

وهذا الحديث الرومانسي يشكل الاساس الفلسفى لتفكير بعض قادة اسرائيل من الليبراليين والاشتراكيين ، الذين يؤمنون بأن الحرب مع العرب ليست وسيلة لضم الأرض وللتخلص من الفلسطينيين وحسب ، بل هى أيضا الطريقة الوحيدة لتأسيس الحضارة الاسرائيلية ولتحرير اليهودى من الخوف ولإعادة صياغته ليصبح ذلك الطرزان اليهودى الجديد ، المواطن الاسرائيلى ، الحاخام الفلاح المحارب ... نتاج لاعتلانى لنقطة بدء لاعتلانية .

وفى ختام هذا الجزء لابد وان نشير الى أن مجموعة من الصهاينة مثل احادهم ويهودا ماجنس ومارتن بوبر قد عارضوا العنف الصهيونى ونادوا بالأخوة العربية اليهودية وبالدولة مزدوجة القومية . ورغم صدق نوايا بعض هؤلاء المفكرين (والتوايا شئ يحكم عليه الله وحده) الا أن ثمة تناقض أساسى فى فكرهم ، فهم لم يتنبهوا عن وعى أو عن غير وعى الى أن البنية الاسطورية للفكر الصهيونى الذى يؤمنون به لابد ان تؤدي حتما الى العنف ، وان الاخلاقيات التى يؤمنون بها كأفراد ان هى الا زخارف وليس لها اية فعالية حقيقية ، كما انها تتناقض بشكل جوهري مع بنية أفكارهم ذاتها . ويهودا ماجنس أول رئيس للجامعة العبرية هو أصدق مثل على هذا النوع من الصهاينة طيبى القلب . فماجنس يؤكد انه بالنسبة لليهود « لا يمكن للغاية مهما سميت أن تقرر الوساطة الدنيئة » (٣٢٣) ولذا فهو مطمئن الى أن اليهود لن تسمح لهم أنفسهم بغزو أرض الميعاد على طريقة يشوع بن نون الذى فتح كنعان (وأباد سكاتها) ، والذى ثبت الوجود اليهودى عن طريق « السيف » (٣٢٥) . وماجنس كان من المؤمنين انه « لا يمكن تأسيس الوطن اليهودى عن طريق كبت الطموح السياسى للعرب ... لأن مثل هذا الوطن سيؤسس على رؤوس الحراب لمدة طويلة » (٣٢٤) . ولذلك فقد اقترح التغلب على الصعاب التى تواجه الصهاينة بواسطة جميع الأسلحة التى وضعتها الحضارة تحت تصرفهم — باستثناء الحراب — « مثل الأسلحة الروحية والثقافية والاجتماعية والمالية والاقتصادية والطبية ... والاخوة والصداقة » (٣٢٥) ويستحسن الابتعاد عن النبالم .

ولكن ماجنس — مثل احادهم — لم يحل التناقض الاساسى

الذى يواجهه طيبو القلب من الصهاينة . ان لم يمكن ان تتم « العودة » عن طريق الوسائل الاخلاقية الحديثة وذلك بسبب عناد « السكان الاصليين » غير اليهود ، فما العمل ؟ الاجابة منطقية وواضحة وحتمية فبنية الافكار الصهيونية الاسطورية تنطوى على الحد الاقصى من العنف لتجاهلها كل تفاصيل الواقع المحسوسة . وأن رفض ماجنس هذا العنف بشكل فردى فهو يكون مثله في هذا مثل الفيلسوف الالماني نيتشه طيب القلب هو الآخر الذى لم يكن يتحمل رؤية الدم ، وعلى الرغم من ذلك فان فكره يشكل الاساس الفلسفى للفكر الفاشى فى العصر الحديث ، وهو الفكر الذى ادى فى نهاية الامر الى اقامة أفران الغاز التى لو قدر له هو نفسه رؤيتها لوقع مفشيا عليه من هول ما رأى .

وقد قام ماجنس بتأسيس حزب أو جماعة « الحود » (التى انضم لها مارتن بوبر) وذلك للدفاع عن حقوق العرب فى فلسطين ، ولتوطيد اواصر الصداقة بينهم وبين اليهود ، ونشر فكرة الدولة ذات القوميتين ولكن لم تكلل مساعيه بالنجاح ، تماما مثلما فشل احاد هعام من قبله ومارتن بوبر من بعده فى ايقاف العنف الصهيونى — احاد هعام الذى تأثر بنيتشه وهاجر الى ارض الميعاد ووزع من رؤية المذابح التى يقوم بها الصهاينة ضد العرب، ومارتن بوبر المفكر النيتشوى النزعة الذى كان يدعو للأخوة العربية اليهودية ، ولكنه فى الوقت ذاته يتحدث عن أمة الروح والحق المقدس فى ارض الميعاد، ويقطن فى بيت عربى اضطر أصحابه للرحيل عنه تحت ضغط الارهاب الصهيونى ، ويقطنون الآن فى منزل يقع خارج ارض الميعاد .

١٤ — الصهيونية والنازية : رؤوس موضوعات

وصف ايخمان نفسه بأنه « صهيونى » ، وهو كان صادقا الى درجة ربما لم تطرا له هو نفسه على بال لأن تلاقى الصهيونية بالنازية ليس تلاقى سلوك وجسب بل هو تلاقى فكرى تمتد جذوره الى اصولهما الفكرية والى بنية رؤيتهما للواقع — بنية وحدة الوجود .

فالصهيونية تصدر عن تصور اسطورى للواقع ، اذ ان راديكاليتهما (مثل علمانيتهما) راديكالية لاعقلانية فاشية ، تماما مثل

راديكالية النازية التي بنت برنامجها السياسى على مجموعة من الاساطير العرقية وشبه التاريخية البراقة (التي تشبه الى حد مثير للدهشة الاساطير اليهودية) وجندت وراءها الجماهير-الجرمانية وقادتها الى حتفها . ونحن نسمى هذه الحركات السياسية بالراديكالية نسبة الى الكلمة اللاتينية « رادكس » radix والتي تعنى « جذر » . وكلا الصهيونية والنازية تقدمان حولا « جذرية » شاملة للمشاكل التي يواجهانها ، ولكن هذه الحلول فاشية لأن جوهرها الاسطورى زائف غير حقيقى لا يستند الى تحليل موضوعى للواقع الاجتماعى او التاريخى ولذا فهو يتطلب من التابع والمريد تقبلا لا عقلانيا وعاطفيا لمعطيات لا وجود لها الا فى مخيلة أحد الحالمين من انصاف الانبياء والكهنة .

وقد اثرت النظريات العرقية المختلفة — خاصة الحركة الجرمانية الجامعة أو الشاملة Pan-Germanic — على الفكر الصهيونى والنازى (والحركات القومية الجامعة حينما تأخذ شكلا متطرفا لاتاريخيا قطابق فى بنيتها فكرة وحدة الوجود) . وقد لخص هانز كوهن منطلق الحركة الجرمانية الشاملة فى هذه الكلمات : « تقوم هذه الحركة على الفكرة القائلة بأن جميع الاشخاص المنحدرين من العرق الالماني ، او تربطهم قرابة الدم والاصل الالماني ، حيثما وجئوا والى اى دولة ينتمون ، يكون ولاءهم الأول لالمانيا ويجب أن يصبحوا مواطنين فى الدولة الالمانية ، وطنهم الحقيقى . قد يكونون نشأوا وترعرعوا ، هم وآباؤهم وأجدادهم ، تحت سماءات أجنبية وفى بيئات غريبة ، لكن « حقيقتهم » الأساسية بقيت المانية » (١) .

واثر هذا المفهوم على الفكرة الصهيونية القائلة بوحدة الشعب اليهودى الصوفية غنى عن البيان ، فاليهودى يبقى يهوديا فى كل زمان ومكان ولاؤه يتجه بالدرجة الاولى للدولة اليهودية .

والاهتمام انزائد والمتطرف بالدولة (التجسيد السياسى للفكرة

(١) اسرائيل الكبرى ٨١ .

المطلقة ولروح الشعب) هي فكرة هيجيلية في أصلها سيطرت على الوجدانيين الصهيونى والنازى ، بل وسيطرت على الوجدان الصهيونى أكثر من سيطرتها على الوجدان النازى لعدم وجود أى واقع محسوس يتعامل معه الصهاينة .

والصهيونية مثل النازية تعمق في تابعها كره الغير ، وقد لاحظ الدكتور أسعد رزوق التشابه بين هذا الجانب في الفكر الصهيونى وفكر الفيلسوف السياسى الالماني كارل شميت مؤلف كتاب **الرومانتيكية السياسية** « الواسع الانتشار في الاوساط النازية والقائمية » . ففى كتاب آخر له يسمى **مفهوم السياسة** بين هذا الفيلسوف الالماني ان كل « تضاد دينى أو أخلاقى أو اقتصادى أو عرقى أو غيره يتحول الى تضاد سياسى متى كان قويا لدرجة تكفى لتجميع الناس بصورة فعالة حول قطبى العدو والصديق » (١)، أى أن التمييز بين العدو والصديق هو أساس صالح لتقييم أى ظاهرة سياسية . والصهيونية التى تدور حول فكرة معاداة السامية وكراهية الجويم لليهود ، تنظر للظواهر بنفس المنظار الضيق ، وهى بهذا تشارك النازية فى احدى سماتها ربما دون تأثر بنفس المصدر الفكرى ، لأن فكرة معاداة اليهود للجويم قديمة قدم التراث اليهودى ذاته .

وقد طبق الصهاينة والنازيون آراء داروين فى التطور الطبيعى على التطور التاريخى والاجتماعى ، فكلاهما يؤمن بأن الظواهر الانسانية فى بساطة الظواهر الطبيعية (وهذا يفسر حتمية الفكر الصهيونى) ، كما أن كلاهما يؤمن بأن المجتمع لا يحكمه سوى قانون واحد طبيعى لا أخلاقى ، قانون « البقاء للأصلح » ، ولذا يصبح العنف وسيلة مشروعة بل ومنطقية وحتمية ، وتصبح العنصرية نمطا طبيعيا وأساسا « علميا » للحياة .

ومما هو معروف أن داروين نفسه لم يفكر فى يوم من الايام أن يوفق بين نظريته والدين المسيحى ، وظل طيلة حياته محافظا متدينا يواظب على الذهاب الى الكنيسة ، بعد أن يقضى اسبوعه فى

(١) نفس المرجع ١٧ .

دراساته المختلفة . أما الصهاينة القادرون على الأتيان بكل العجائب فقد حاولوا أن يزاوجوا الداروينية واليهودية ، ففسر بعض مفكرهم التيه في الصحراء على أنه التطبيق الريائي لنظرية الاختيار الطبيعي ، وبذلك يكون التيه ليس عقابا لليهود على ضلالهم وفسادهم الأخلاقي وإنما هو محاولة من جانب الله للقضاء على الضعيف فيهم حتى لا يدخل أرض كنعان سوى الأصحاء والسويبرمن (وهنا نجد أسطورة دينية قديمة أخرى ليس لها أى دلالة أخلاقية مثل أسطورة الاصطفاء واليثاق تصبح قصورا داروينيا في منتهى السهولة) . والتصورات المسيحانية وفكرة الاختيار حينما ترتدى رداء علمانيا فانها تكتسب طابعا دارونيا فاشيا . فبن جوريون يتحدث عن الرؤية المسيحانية على أنها حقيقة تاريخية ووجود اجتماعي يستطيع اليهود وحدهم تحقيقها . وهو يستنتج من ذلك تفوق اليهود الأخلاقي والفكري ويشير الى مقدرتهم على أن يكونوا مثلا يحتذى للجنس البشرى كله (١) . والحديث عن مقدرة الأمة اليهودية على البقاء على الرغم من الاضطهاد الذي لحق بها عبر التاريخ والذي فسر قديما على أنه بقاء الأمة المختارة الصوفي يفسر في العصر الحديث على أنه البقاء للأصلح (وليس « للأقدس » كما كان الحال في الماضي) . كما أن تبرير الصهاينة للوجود الاسرائيلي داخل الأراضى العربية على أساس التفوق التكنولوجي وحده ، وليس على أساس أخلاقي ، هذا التبرير ينبع هو الآخر من تفكير دارويني اجتماعي فاشي .

والفكر الصهيوني — مثل الفكر النازي — تعود جذوره الى الفكر الرومانتيكي عامة والالمانى على وجه الخصوص :

١ — وقد بينا من قبل أن الصهيونية تلغى العقل وتقدس العاطفة وهى فى هذا تشبه الفكر الرومانتيكى المتطرف والنازية .

٢ — وكلا الفلسفتين النازية والصهيونية تؤمن بوحدة الوجود ويأمن من الخير للإنسان ذى الوعى التاريخى الفردى أن يندمج بالفكرة والمثل .

(١) الفكرة الصهيونية ٩٤ .

٣ — والقيار النبوى واضح فى الفكر النازى وضوحه فى الفكر الصهيونى ، فالنبي مثل السوبرمان كلاهما يجسد مطلقا ، وصورة النبي العسكري (بن جوريون والفوهرر) تسيطر على الوجدان اليهودى سيطرتها على الوجدان النازى .

٤ — كما أن استقطابات الفكر النبوى الذى يتسم بالحرية المفرطة والحقبة المطلقة تسم كلا الفكرين . فالنبي يتجسده لكلمة الرب ينتمى الى عالم المطلق الذى لا تحده حدود أو حدود ، ولكنه بهائمته لهذا العالم يفقد القدرة على الاختيار الانسانى كما أنه لا يملك الا أن يجسد كلمة الرب أو الفكرة المطلقة ، اذ أنه يصبح مجرد اداة فى يد المطلق (وهذا الاستقطاب هو أحد سمات الفكر البورجوازى عامة الذى يدور حول اسطورة العودة للطبيعة والانسان الطبيعى) (١) .

٥ — كما أن الجدل المثالى الهيجلى هو مصدر أساسى للفكر الصهيونى والنازى والطريقة التى يبرر بها مفكرو كلتا الحركتين برنامجهما السياسى .

٦ — وقد تأثر الصهاينة ، مثل النازيين ، بكتابات نيتشه وفخته وبارائهما المثالية فى القومية والارادة المطلقة .

ولنيتشه بالذات تأثير كبير على عديد من المفكرين الصهاينة مثل احاد هعام ومارتن بوبر وبرديشفسكى ، كما أن التشابه بين فكره والفكر الصهيونى مثير حقا للدهشة :

١ — فالنيتشوية مثل الصهيونية هى ديانة علمانية أو لاهوت دون الله .

٢ — كما أن النيتشوية مثل الصهيونية ديانة داروينية تسبغ نوعا من الروحية والقداسة على قانون التطور .

٣ — ومعاداة الفكر واحتقاره وتقديس الفعل يشكلان تيارا أساسيا فى فكر نيتشه وفى الصهيونية ، وقد أشرنا من قبل الى مدى

(١) عبد الوهاب المسيرى ، « الرأسمالية وفكرة العودة للطبيعة » ،
الطبعة (فبراير ١٩٧١) ٦٢ — ٦٩ .

احتقار الصهيونية ليهود الدياسبورا المشتغلين بالأعمال «الفكرية» .
ان اخلاق يهود الدياسبورا هي اخلاق العبيد أما اخلاق الصهاينة
فهي ولاشك اخلاق السادة .

٤ — واذا كان نيتشه قد دعا الانسان لأن يعيش في خطر وفي حالة
حرب وان يبنى بيته بجوار البركان ، فان الصهيونية ايدولوجية
الريادة المسلحة قد حققت هذه الحياة النيتشوية للمهاجر اليهودي ثم
للمواطن الاسرائيلي .

٥ — والفكر النيتشوي مثل الفكر الصهيوني تسرى فيه نزعة
قوية من البائثيزم — وحدة الوجود . ان حدود الاشياء ومعالمها في
الكتابات الصهيونية وفي فكر نيتشه تختفى ليحل محلها ضباب
اللاتحدد والمطلق .

٦ — وتفكير نيتشه تفكير نبوي نخبوي اذ انه يرى ان حركة التطور
الحقيقية لا بد وان تؤدي الى ظهور السوبرمان والى ظهور امة
مختارة من هذا النوع من الرجال ، وما الانسان العادي سوى
الحلقة او الكوبرى الموصل لهذه المرحلة العليا (التى توجد بطبيعة
الحال مرحلة اعلى منها الى ان نصل الى الحد الاقصى « المطلق »
غير المعروف) . ويسيطر على الصهيونية أيضا تفكير نخبوي يحول
حياة جماهير اليهود في الدياسبورا الى مجرد كوبرى يؤدي الى ظهور
السوبرمان اليهودي والدولة اليهودية . والتفكير النخبوي بطبيعة
الحال تفكير نبوي ، فالسوبرمان هو الانسان الذى يصل الى الحقيقة
دون عناء والذى يحيا حياة فاضلة (مسيحية) . وقد سيطر
التفكير النبوي على نيتشه الى درجة انه وقع احدى خطباته بكلمة
« المصلوب » وهى صفة كثيرا ما يستخدمها المفكرون الصهاينة
للاشارة للشعب اليهودي وللأفراد اليهود .

٧ — ونيتشه في كتاباته يتحدث دائما عن الماضى والمستقبل ولايركز
عيونه على الحاضر ابدا (والماضى والمستقبل دون الحاضر الحي
يتحولان الى ثابتين مجردين) ، والصهاينة بدورهم لا يتحسسون
عادة الا عن الماضى والمستقبل البعيدين وان نظروا الى الحاضر
فانهم ينظرون اليه في ضوء اهتمامهم بالماضى والمستقبل . واذا بدأ

أى مفكر أو سياسى مثل أفيرى أو جولدمان أو دوينوف فى الاهتمام بالحاضر كواقع تاريخى محسوس فإن الصهاينة يتهمونهم فى التوسل بالسلبيية والتخاذل .

٨ - ودائرية الفكر الصهيونى تشبه فى كثير من الوجوه الفكرة النيتشوية بخصوص العود الأبدى . يقول نيتشه على لسان زرادشت : « سأعود مع هذه الشمس ، وهذه الأرض وهذا النفس ، وهذا الشعبان - لا إلى حياة جديدة أو حياة أفضل ، أو حياة تقرب من هذه . سأعود أبدا إلى نفس هذه الحياة ، فى كل صغيرة وكبيرة منها ، لكى أدعو مرة أخرى إلى العود الأبدى لكل الأشياء » (١) ، وهذا هو التوازن الألى الذى ينبج عن تحدد الهدف وثباته والدوران حول المطلق .

٩ - ونيتشه بتفكيره النبوى المطلق لا يتحدث عن السعادة الفردية أو عن السعاد عامة ، فالسعادة من شيم الضعفاء والعبيد أما السوبرمان فيعلو على الخير والشر . وتجاهل السعادة كقيمة إنسانية هو أيضا إحدى سمات الفكر الصهيونى ، فالصهاينة مشغولون بتصوراتهم المثالية المسيحية عن الدولة اليهودية والشعب المختار وبالتالي فهم ينسون الفرد اليهودى المحسوس نفسه - أن الوجه الصهيونى مثل الوجه النيتشوى الفاشى لا تظهر عليه أية اشتراقات إنسانية ولا تملوه أى ابتسامة ، أنه وجه غاضب وميت فى الوقت ذاته ، مركزة عيونه على الأزلية ، والقلارىء لكتابات المفكرين الصهيونيين يحس بالاختناق الشديد لأنه لا تملحه أية سمات إنسانية .

حينما وصف ايخمان نفسه بأنه صهيونى ، هل طرأ له على بال هذا التطابق شبه التام بين الصهيونية والفاشية ؟

(١) مؤاد زكريا ، نيتشة (القاهرة : دار المعارف ، ١٩٥٦) ١٢٩ .

الخاتمة

وبعد - حاولنا في هذه الدراسة ان نصف ونقيم البنية الاسطورية للفكر الصهيوني او النموذج المجرد الذى يضم ثلثى الايديولوجيات الصهيونية . ولكن يجب الا يغيب عن بالنا ان هذه البنية هى اساسا « نموذج فكرى » جردناه من دراستنا للمدارس الصهيونية المختلفة . فهناك مثلا الصهيونية الدينية والروحانية التى تتجاهل الوجود اليهودى الانسانى تجاهلا كاملا وتحصر اهتمامها فى اليهودية واساطيرها ومثلها ، وهناك ايضا الصهيونية السياسية التى تحاول ان تصفى العنصر الدينى وتؤكد العنصر القومى . الا ان الصراع بين المدارس الصهيونية المختلفة كان صراعا فكريا مجردا نظرا لانفصاله عن الواقع والتطبيق ، ولكن بظهور دولة اسرائيل تفجرت كل الاستقطابات والتناقضات الكامنة فى الصهيونية . ولعل اهم تعبير عن هذا الوضع الجديد فى صفوف اليهود خارج اسرائيل هو ما يسمى « بصهيونية الدياسبورا » وهو ضرب من الصهيونية يؤمن به يهود المتنى وحدهم ، خاصة فى الولايات المتحدة ، الذين يودون تحويل اسرائيل الى « مركز روحى » يزورونه فى عطلاتهم السنوية وايضا شاعوا دون ان يهاجروا اليه للاقامة الدائمة ، اى انهم ينسلخون الى حد ما عن الباتئيزم اليهودية ويضعف ارتباطهم الازلى بأرض الميعاد نتيجة لضغط واقعهم المحسوس ومصالحهم الاقتصادية المباشرة على وعيهم الصهيونى الزائف ، وبعد ناحوم جولدمان من اهم الممثلين لهذا التيار . اما داخل اسرائيل ذاتها فقد ظهرت تيارات عديدة ، وان كانت لم تزل ضعيفة ، تطالب الاسرائيليين بأن ينظروا لانفسهم نظرة اكثر تاريخية وعقلانية ، باعتبار انهم يعيشون فى واقع تاريخى جديد عليهم التعامل معه والانتماء اليه وان يبتعدوا عن التصورات الطوباوية الصهيونية الجتوية حتى تصبح اسرائيل دينامية مستقلة عن « يهود العالم » ، ومن اهم ممثلى هذا التيار الفكر الاسرائيلى

يورى افيرى . وسنعرض بالتحليل لبنيات الصهيونية الفرعية
وصهيونية الدياسبورا والتيارات الفكرية الجديدة التى نشأت فى
اسرائيل فى دراسة لاحقة نقوم باعدادها فى الوقت الحاضر .

ولكن الفكر لا يتطور من تلقاء نفسه والعقل ليس شيئا يهبط علينا
من السماء ، بل هما نتاج ممارستنا اليومية . وممارسة الاسرائيلى
اليومية قد تكون قد أبعدته الى حد ما عن الاساطير اليهودية القديمة ،
كما أنها ولاشك فجرت بعض التناقضات الحقيقية فى حياته مثل
الصراعات الطبقيّة والعنصرية التى يشاهدها المجتمع الاسرائيلى ،
ولكن هذه التناقضات لاتضغط عليه بعد بالشكل الكافى الذى يسمح
له بالتحرك من وعيه الصهيونى الزائف . فهو لا يزال متمسكاً بقانون
العودة ولا يزال يشجع الهجرة اليهودية الى ارض الميعاد منكراً هذا
الحق على الفلسطينيين صاحب الأرض . بل أنه لا زال غير قادر على
فهم عناد الفلسطينيين واصرارهم على العودة ، مع انه يجد ذلك
منطقياً وطبيعياً للغاية بالنسبة لليهود الذين يسكنون الهند والحبشة
ونيو يورك وبيرو وكيف . وكل هذا يدل على أن الصهيونية لاتزال
ذات فعالية على المستوى الوجدانى على الرغم من ضمورها على
المستوى الفكرى الواعى داخل اسرائيل ، وعلى الرغم من اختفاء
الظروف « الموضوعية » التى أدت الى ظهورها الى حيز الوجود .

وهذا الوعى الزائف سيقدر له الاستمرار ، بل والانتصار ، أن
لم يتحرك الفلسطينيون والعرب ليكبدوا الاسرائيليين ثمن تجاهلهم
للواقع والتاريخ العربيين . فالممارسة العربية وحدها هى التى
ستحسم الموقف ، وهى وحدها قادرة على تحرير الاسرائيلى من
وعيه الزائف . ان اللاعقلانية الصهيونية لن تنحسر عن المنطقة ،
ولن تسود الأوضاع العقلانية التى تعبر عن امكانيات المنطقة الحقيقية
الا عن طريق تأكيد الشعب الفلسطينى خاصة والشعب العربى
علمة لوجوده ودوره .

وانا هنا لا أقترح « مطلقاً عربياً » فى مقابل « المطلق الصهيونى » ،
فأنا من المؤمنين بأن الكفاح العربى المسلح ضد الغزو والوجود
الصهيونى لابد وأن يصاحبه محاولة جادة وخلاقة للتعرف على كل

الحركات العقلانية الثورية داخل اسرائيل ولتشجيعها وتبنيها ،
والا مسقطنا في هوة التصنيف الصهيوني الميلودرامي : اليهودي في
مقابل الجويم ، على ان نلعب نحن الدور الآخر في دقة وانتقان .
وانا هنا لأعارض « المطلق العربي » على أساس أخلاقي وحسب ،
وانما على أساس علمي عملي أيضا ، فمحاولة ترجمة أى مطلق الى
واقع محسوس مسألة تستلزم توضيحات انسانية وحضارية ليس
لها ما يبررها ، كما أنه أمر في النهاية مستحيل فكل رؤية لا تأخذ
مكونات الواقع في الاعتبار ، ان حدوده أو إمكانياته ، تظل حلما
وسرابا ، أما الرؤية النسبية فهي من الممكن ان تتحول الى واقع حي
من خلال الارادة والممارسة الانسانيين لأنها نابعة من الواقع
الحقيقي ذاته .

ولكن الحوار وحده ان لم تسانده القوة العربية الضاغطة ،
لن يجدى فتيلا ، حتى ولو كان مع أعقل العقلاء الاسرائيليين وأكثرهم
حكمة وثورية ! اذ ان مثل هذا الحوار سيكون بمثابة دليل تستخدمه
السلطة الصهيونية الحاكمة لتبين ضعف العرب وتخاذلهم أمام زحف
المطلق الصهيوني المسلح !

مطابع الأعصر والتميز

Bibliotheca Alexandrina



0395395